الاديب العربي

☆

اعطى لأُجوّع في نهامة جوعهم قلبه ، فظنوه طعاماً .
وسكب للعطاشى في جشع اباريقهم دمه ، فظنوه ماء .
ومسح جراحهم بجناحه فخدّشوا بيد المتعة ، واظافر البغضاء جرحه وجناحه .
اطعمهم جفنيه حباتٍ من الدمع المستهّل ، فامتصوا دمعه بشفاههم القاسية كأنه عصير عناقيد .
انتصب كالمصباح في عين الظلمة لكنه لم يرَ عابراً الى حدود الفجر الاّ وضرب الزجاج بعصا النقمة .
هو نور استيقظوا به ، ثم تمنّوا لو كان عتمة .
هو هدى اهتدوا به ، ثم تمنّوا لو كان لقمة .
هو جبل ، هو قمّة ، ولكنهم اغرقوا في امعاء ضمائرهم ، صخرة الجبل ، صخرة القمّة .

***

يعطي فيأخذون ، ولكنهم في الاخذ وجه شحيح في اشباح منّة . سفح قلبه في هياكل الحق سماء ، فظنوه بخوراً ، وناراً ، ولم يدركوا ان حرفه ليس جمراً ولكنه قطرات نور ، تفجرّ ألوهة وخمراً .

يعطي ويأخذون ثم يمنعون .

وبين اخذهم ومنعهم تتحرك آمال امّة . . . يا لها من امّة تحلم بضخامة غدها ، فلا تجد شيئاً تأكله الا جوانح ابنائها الطامحين . تحدو قوافل الخونة لتمنع عن المتحررين ، تكرّم المذلّة لتذل جباه الشامخين ، تقدس الغباوة لتسترق وداعة المفكرين ، تسقي المارقين لتعطّش حناجر الظامئين .

من ينقذها من معقّتها ، من انانيتها المدلهمة ؟

***

يعطي فيأخذون ثم يمنعون .

متى تؤمن هذه الآخذة المانعة ، ان غدها في يدنا ، في شفاه اقلامنا ، في هذا النور المنصّب في عروقنا ، في بياض حروفنا ، في هذا الطيب العابق من خميرة ايماننا ، في هذه الجبال التي ننشيء ، في هذه السهول التي نبسط ، في هذه الينابيع التي نفجّرها صباحاً من صدر الصباح ، في هذه الصواري التي نشرّعها خواطر على عباب الخواطر .

متى تؤمن هذه الامة ، ان عينها عيننا ، ان جبهتها جبهتنا ، ان ضميرها ضميرنا ، متى تؤمن اننا نحن غدها ،
نحن الامة .

***

لن يمتنع عن العطاء ، ايتها الآخذة المانعة .

الياس خليل زخريا

المؤتمر الثقافي الاول

حول التقارير الاولى للجنة الثقافية لجامعة الدول العربية

بقلم عبدالله العلايلي

✩

ان اول امر تحسن البداية به لايجاد مستوى ثقافي رفيع موحد بين البلاد العربية ، ولتوحيد اتجاهات تلك الثقافة ، هو العناية بمواد الثقافة العربية واساليب تعليمها ، فهي الاصل والمشرع ، وعليها يرتكز التعليم القومي ومنها يستمد روحه .

واذا هي استوفت حقها من تلك العناية ، كانت سبباً لوحدة العواطف القومية والتقارب الاتجاهات العقلية بين البلاد العربية . لذلك رؤي ان يكون من اول اعمال لجنة ثقافية تنعقد بعد اقرار مجلس الجامعة العربية المعاهدة الثقافية ، معالجة امر الثقافة العربية ، فقررت تلك اللجنة عقد اول مؤتمر وقررت ان تكون مهمته البحث في امرين :

اولاً : وضع حد ادنى مشترك لمواد الثقافة العربية .

ثانياً : تحسين طرق تدريس اللغة العربية . وقصد بالموضوع الاول النظر في وضع اسس مشتركة في مواد الثقافة العربية ، تبلغ بالطالب العربي الى ما يقوي ملكاته ومعرفته ويبعث في روحه الشعور بالقومية العربية . وقصد بالموضوع الثاني البحث في اساليب التعليم للغة العربية ومعالجة نقصها والسمو بها الى ما يحقق الغرض منها .

بهذه الفقرات يمهد تقرير المؤتمر الثقافي الاول الذي اشتمل على طائفة من التوجيهات الى طائفة من الحلول والاسئلة .

وشاءت الامانة العامة ان تستطلع فيه آراء وزارات المعارف للدول العربية المشتركة ، وهذه بدورها استطلعت آراء طائفة من المشتغلين بشؤون الثقافة ، وكان لنا من هذا الاستطلاع نصيب .

ولاهمية المشروع واهمية ما تضمنه التقرير ، نحن نشرك الناس به تعريفاً وتعقيباً .

يشتمل التقرير على معالجة موضوعات : اللغة ، والتاريخ ، والتربية الوطنية ، والجغرافية . فعرض جوانب المشكلة فيها واعان على حلول بعض منها ، وساءل عن بعض . . ولنذهب مع التقرير بادئين بموضوع اللغة .

يحدد التقرير قبل كل شيء — وهذا طبيعي — الهدف لتعليم اللغة العربية وآدابها ثم يذهب فيفصل الهدف في مداراته التي هي :

١ — جعل الطلاب قادرين على القراءة الصحيحة في سهولة ويسر ، وتسويغهم فهم ما اشتملت عليه الكتب من افكار ومعان .

٢ — تمكينهم من التعبير عما يجول في نفوسهم ويقع تحت حواسهم بعبارة عربية صحيحة مع الدقة وطلاقة اللسان وقوة البيان .

٣ — جعل دراسة العربية وسيلة صحيحة للثقافة وتوسيع المدارك وتنمية الذوق السليم وتزويد الطالب بكثير من المعلومات القيمة ، لا ان تكون محض دراسة لالفاظ وتراكيب ومفردات عمادها الزينة والزخرف الشكلي وهي في الحقيقة فارغة لا روح فيها ولا حياة .

٤ — صلة الطلاب صلة وثيقة بالحياة الادبية والعلمية المحيطة بهم ومسايرة النهوض الادبي الحديث ، لا ان يكونوا بمعزل عما حولهم ، فتكون المدرسة في ناحية والحياة الادبية الواقعية في ناحية اخرى .

ويقطع التقرير بان اولي النظر يكادون يجمعون على ان التعليم في المدارس لم يحقق هذه الغايات ، وان الطالب يخرج حتى من العالية منها معوج اللسان مضطرب القلم ، لا تنزع نفسه الى القراءة ولا الى الاستزادة . هذا الى خمود في التفكير وضعف في الملكات الانشائية والادبية وضيق في النظر ونزول في المستوى الثقافي .

والتقرير يرد هذا النقص الى عيوب ، تتصل بالمناهج واساليب التعليم ، والكتب وطبيعة اللغة ، والمعلم . وهكذا يذهب في تفصيلاتها مفسراً ومعللاً . . .

ونحن نلاحظ على تقرير لجنة اللغة العربية من وجه عام عدم الدقة ، اذ بني على ملاحظات اكثرها سطحي . وذلك لان الناس في المجتمع العربي حينما سارعوا واخذوا بتعلق النهضة ، واجهتهم اللغة — وهم ضعفاء

فيها – بشيء من الصعوبة فظنوها طبيعة في اللغة .

وذهبوا منذ ذلك الحين يفترضون صعوبتها ، وبالتالي يشخصون نواحي هذه الصعوبة ، ويعالجونها كشيء واقعي جداً باقتراحات شتى وآراء مختلفة . من نادي دار العلوم القديم عهد حفني ناصف ، الى المجمع اللبناني ، الى المجمع العربي بدمشق الى مجمع مصر ، الى اللجنة الثقافية اليوم .

ولكنها ملاحظات سبق لجماعة ان عرضت لهم فتبنوها ، ودرج الناس على تبنيها في تسليم ، دون محاولة عرضها من جديد على اللغة العربية وطبيعتها ، للتيقن من انها حقيقة ، واذا لم تكن كذلك ، فاين هي منها مواطن الصعوبة الحق . . وهذا ما سبق لي اني عالجته سنة ١٩٣٧ في كتاب مقدمة لدرس لغة العرب وعنيت بتفصيله وبيانه .

فينبغي قبل كل شيء ان نستبعد ان في طبيعة اللغة صعوبة ، ليستقيم لنا سبيل العلاج ودقة التشخيص .

فالعربية كقاموس اي كمفردات ، والعربية كقواعد صرفية او نحوية او اشتقاقية ، والعربية كاساليب ، ليس يعلق بها اثر من صعوبة . . بل تبدو من اطراد قاعدتها انها آلية ، ومن عمليتها البسيطة التي لا تشذ انها « الهية صبيانية » على حد تعبير المستشرق الفرنسي المعاصر « مرسيه » .

ولكن مع ذلك تواجهنا صعوبتها ، فماهي بواعثها ؟ وما هي وسائل علاجها الحقيقية .

لست اشك في ان البواعث ترجع الى :

١ – التفلسف في القاعدة العربية .

٢ – ابجدية الكتابة العربية المختزلة بقيامها على الحرف الصامت « حرف بناء الكلمة » دون المصوت « حرف الحركة »

٣ – وجود لغتين عامية وفصحى ، وكون الاولى لغة الحياة الآنية التي نؤديها اداء طبيعياً عفوياً بل لا واعياً بكثرة ما نتمرسها ، وكون الثانية لغة الحياة الفنية والمعنوية التي نصطنعها فلا نؤديها الا بوعي ارادي وضبط مدرك يعودان علينا بارهاق كبير . . وبذلك يظل بين واقعنا العادي وواقعنا السامي ، هوة تزداد مع التمادي سعة .

٤ – العمل الذهني في الاعراب . .

ولكي ننتهي الى الوسائل الحقيقية للعلاج ينبغي ان نبحثها ولو سريعاً :

التفلسف في القاعدة العربية

كلنا نعرف ان البديهية حينما نأخذها مأخذ التفلسف تستحيل الى معضلة ، وهذا هو الواقع في القاعدة العربية .

فقد ذهب بها اللغويون مذهب التفلسف فاطالوا وفصلوا . وكان من هذه الاطالة وهذا التفصيل ، مجموعة موشحة معقدة راح أصحاب المختصرات التعليمية في القديم الماضي والحديث الحاضر ، يبوبونها بكل ماثبت فيها فاضافوا اليها تعقيداً جديداً .

ولا سيما اذا لاحظنا ان اللغة العربية ذهنية اكثر مما هي لفظية ، فلابدع اذا تصعبناها وكان الطالب من ورائنا اكثر تصعباً بها .

فلو اخذنا بالدرس قاعدة الابتداء بالنكرة وانه لا يجوز ، نجد النحوي يعود فيقرر وجود استثناآت ، ثم يمضي فيعدد مواطنها ، فتصل حيناً الى ثمانية عشر موطناً وحيناً الى اكثر بما يربي على الضعف . ثم يجيء المختصر فيجمل مواطن الاستثناآت في كلمتي « التعميم والتخصيص » . ولكن اليس هذا كلام له خبيء ، معناه ، ليست لنا عقول . فهل الكلام يساق الابين وجهين من تعميم او تخصيص .

اذن فما وجه بقاء القاعدة ، لا شيء الهم سوى التفلسف والتعقيد ، وبساطة اللغة تقضي بجواز الابتداء لا فرق في ذلك بين معرفة ونكرة .

وعليه فالعلاج الحقيقي في هذا الجانب بالاسقاط والازالة ، ورد القاعدة الى بساطتها اللغوية الخالصة ، في التعليم وما وراءه ايضاً . . واما النصوص المحفوظة فدرسها والتفلسف في وجوه تعليلها وتخريجها فرع يتصل بالبحث الفيلولوجي المحض .

ابجدية الكتابة العربية المختزلة

قد يظن بادىء ذي بدء ، انه سبب ليس بذي اهمية قصوى ولكن بفضل قليل من اعمال الفكر ، يظهر ان هذه الابجدية المختزلة منشأ كل صعوبة حسبها الناس قائمة في طبيعة اللغة . من مثل ما اشتهر على لسان قاسم امين ونوه اليه التقرير « القارىء بالعربية يفهم ليقرأ ، بينما هو باللغات الغربية يقرأ ليفهم » . فنحن نقع في جملة عربية على كلمة يضرب مثلاً ، فيحتمل ان تكون (يضرب) فعل مضارع من الثلاثي المبني للمعلوم ، وان تكون (يضرب) فعل مضارع من الثلاثي المبني للمجهول ، وان تكون (يضرب) فعل مضارع من الرباعي ، ولا يعينه الا السياق وفحوى العبارة . . اذن فينبغي للقارىء بالعربية ان يفهم اولاً ليقرأ ، وهذا حقيقي ولكن مرده الى ابجدية الكتابة المختزلة . بدليل ان كلمة (يضرب) لو كتبت بالحروف الصوتية او الغربية لارتفع الاحتمال وتعين القصد من اول الامر ، وتسنى للقارىء بالعربية ان يقرأ ليفهم ايضاً .

وهذه الابجدية المختزلة كانت السبب ايضاً في شيوع اللحن والحاجة الى المعجم للضبط . . فنحن نجد مثل كلمة (غمر)

التي يمكن ان تكون فعلاً ماضياً ، وان تكون جمعاً ، وان تكون مفرداً بضم الاول وسكون الثاني بمعنى النبي ، وان تكون مفرداً بفتح الاول وسكون الثاني بمعنى المكان المغمور بالماء ، وان تكون مفرداً بكسر الاول وسكون الثاني بمعنى الحفيظة

فالطالب وان سمع ضبطها من المعلم شفاهاً ، فكثيراً ما يذهل عنه فيخرج به عن موضعه ويقع في اللحن . . بينما هو اذا لم يسمعها الا كذلك ولم يقرأها الا كذلك يتموسها على ما هي ويثبت صوابها في نفسه .

ولقد لاحظ هذه العقدة في الخط العربي من القدماء ، حمزة الاصبهاني وابن السيد البطليوسي . . فالضرورة اذن تقضي بالعدول عنه ، وليس لنا الا وجهان طبيعيان :

١ – استعارة الخط الغربي وتعديله بما يتفق واللفظ العربي .

٢ – اعتماد الكتابة الصوتية بجعل حروف اللين نيابة عن الحركة . .

ولكن في الوجه الاول تنكر قومي وفصم تراث عن تراث واثم في جنب المجد ، فلم يبق الا الوجه الثاني . . وهذا العمل الاصلاحي في الابجدية ييسر ويغني عن الرجوع الى المعجم كثيراً ، وعن الاشتباه بوضع الكلمة من النطق عن كل قواعد الاملاء .

وجود لغتين عامية وفصحى

وكون الاولى تؤدي في غير جهد ، بين الثانية تؤدي بجهد كبير وما من سبيل التغلب على هذه الصعوبة الا :

اولا : بافساح الفصحى لتبني مفردات العامية التي ترجع الى اصل فصيح ولو محرفاً والمفردات التي تتميز بمعان دقيقة وجاءت جارية على اوزان الفصحى ، وبعبارة ثانية العمل على تفصيح العامية .

ثانياً : بجعل التعليم في الادوار الاولى بالعامية المهذبة التي غزيت بكثير من مفردات الفصحى السهلة والتي خلصت حواشيها مما لا يتفق مع موازين الفصحى فمن وجه لا تأخذ الطالب البدي. بما يشعر انه ثقيل عليه ، بل بنفس ما يتخاطب به ولكنه اكثر اشراقاً واكثر تهذيباً . ومن وجه آخر نكون قد اعنا على شيوع العامية المهذبة او الفصحى غير المعربة وضمنا بصورة عامة تقريب ما بين لغتنا اليومية ولغتنا الادبية الرفيعة ، بل نكون حصلنا على اكثر من ذلك بتوصيل اللغتين وتوحيدهما تقريباً .

العمل الذهني في الاعراب

ليس من شك في ان العربية بما فيها من الاعراب ، تصبح لغة ذهنية تقتضينا التفكير ونحن نتكلم ونسمع ونكتب ونقرأ ، فاذا ذهب المرء يعبر عن حادث وقع على حال ما في ظرف ما في زمن ما ، كان لديه ثلاثة منصوبات : منصوب على انه حال ومنصوب على انه ظرف مكان ومنصوب على انه ظرف زمان . فلا يكتفي برغبة التعبير عن الحادث ، بل يضطر ايضاً الى اعمال الذهن ليجيء كل منصوب في محله من الاداء .

فمساوقة الطبيعة المتفتحة في الطفل ، تقضي علينا ان نبعد عنه هذا الاعراب في الادوار الاولى ، فيتعلم ويطالع ويتلقن بشكل خال من الاعراب . حتى اذا استوت فيه ملكاته الذهنية اخذ به اخذاً غير مشعور به ، وذلك بالانتقال تدريجياً الى الاعراب وتحريك بنية الكلمات في مراحل ومنازل تتفق ونشوءه العقلي .

هذا ما نلاحظه على تقرير اللغة فيما يتعلق بطبيعة العربية ، التي راح يعدها في جملة الاصول التي ترجع اليها عيوب التعليم .

المعلم ايضاً

وبعد التقرير المعلم اصلاً من الاصول التي ترجع اليها العيوب العالقة بالتعليم ، ويتساءل : هل اعد العالم العربي معلماً صالحاً ؟ . . ويحض على التفكير طويلاً فيما تساءل عنه .

والحق ان التفكير في غرضها لسؤال ضروري ولكن على وجه آخر . . فالذي نعرفه عن معلمنا انه صالح الاداة من حيث المادة وانه مستقيمها جيداً ، فقد اكتملت له في هذه الحقبة كل الاداة اللازمة في الغايات التي ذهب يذكرها التقرير ويعددها : كالثقافة الواسعة في التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والخبرة الحيوية والاجتماعية ولكن النقص به معلماً بل مربياً .

وجاء اخفاق المحاولات التي بذلت في هذا الصدد من جهة ، اننا حينما انشانا دوراً للتربية والمعلمين ، اخذنا التربية نفسها على مادة تعليم . فخرج ابناؤها وهم عارفون بالتربية ولم يخرجوا مربين ، وذلك لاننا لم نزل نخطيء السبيل ونبني على غير اساس .

ان الاساس الحق للمحاولة كي تنجح . هو الشخص نفسه . فيلزمنا اذن الامتحان الاستعدادي للشخص اولاً ، فكما لا يكون كل شخص شاعراً مثلاً ، لا يكون كل شخص مربياً .

فكان علينا ان نقوم بالاختبار الشخصي لاستعدادات الراغبين بالالتحاق بهذه الدور ، ومن هنا يستقيم لنا سبيل هذه المحاولة وسبيل نجاحها ، ونضمن من بعد واثقين ، الظفر بالمعلم وبالاحرى المربي الصالح . . ولعلنا في مناسبة اخرى نعرض لسائر جوانب التقرير .

عبد الله العلايلي

يتيم

☆

ابي ! . .
كلمة ردّدها الصدى على اذني
وغصّ بها فؤادي !
حدثتني امي عن كبريائها
فعركتني الحياة بكبريائي .
ترى من انا ؟ من اكون ؟
لست ادري . .
شبح قال لي . . .
خطى الى المجد علياء
ماضٍ كوّن في نفسي معنى الخيلاء
رفعتني اواصر مبهمة
شق لها الغيب حجب السماء .
شرق قلبي بالدمع
فحملت على كف حلم واهن
ضعيف الكيان ، ضعيف البناء .
انا قوي الرجاء
صهرتني الحياة
فخرجت شموخ الانف
كسير الفؤاد .
ابي ! . . .
ومن ترى يكون ؟
لم يكن ابي بغيري
انا ابي !
انا المجد التليد
انا انطلاق الرجاء

البير أديب

من شيخ الجامع الى راهب الدير

بقلم رشاد المغربي دارغوث

☆

في بيروت اليوم جامعتان ، اسستا بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل ولكن عصر النهضة ، في لبنان ، اقدم من هذا التاريخ . ولئن كان الفضل في توجيه هذه النهضة ، شطر المدنية الغربية ، يرجع الى هاتين الجامعتين ، الاميركية والفرنسية ، فان لهذه النهضة ، وجهة اعرق ، سبق ان رسم اتجاهها ، شطر الشرق ، راهب الدير من جهة وشيخ الجامع من جهة ثانية .

والواقع ان اليد التي اسداها الراهب والشيخ الى نهضتنا الاخيرة يد لا يقدرها الا كل من اطلع على تاريخ هذه البلاد ، في الحقبة الممتدة بين العهدين الصليبي والعثماني ، وما بعدهما الى اوائل القرن الذي نعيش فيه .

ان معالم الحضارة التي دكتها الحروب الحمراء ، والفتن السوداء وعوامل الطبيعة الطاغية (الزلازل) ، ثم ما اصاب الناس من خدر وكسل رانا عليهم بكابوسها الثقيل ، كل هذا وعامل الاستعمار الذي يهدف الى استعباد النفوس وارضاخها لسلطان اجنبي ، غريب العادات واللغة ، غريب التقاليد والروح ، جميع هذه العوامل تركت ربوع الشرق ، بعد المغول والصليبيين ، وفي عهد العثمانيين ، بحاجة ماسة ، الى من يرفع فيها راية العلم الباني ، او يأخذ بيد الادب الموجه .

فكان هذا العمل الشاق الجبار ، وهذا الجهد الانبعاثي العجيب من مهام الدير في السفوح والقرى ، ومن رسالة المسجد في السهول والمدن .

وهنا كان يصح ان نذكر كبار المشايخ والاحبار وسواهم ممن انتهى اليهم الشرف في تزعم هذا الجهد الجماعي ، سواء كان ذلك في طرابلس وشمال لبنان او صيدا وجبل عامل ، او بيروت وجبل لبنان ، لولا ان ضيق المقام يحول دون ذلك . ولكن لا بد من القول في هذه المناسبة بان تلك النهضة كانت تستند الى علوم الدين وما يتفرع منها ، والى الادب وفنونه لا الى العلم التجريبي او العلم وحده .

ثم ينقضي نصف قرن قبل ان تخرج الجامعات والكليات الحديثة عندنا رجال الفلسفة والفكر ، فيضيق عن استيعابهم محيط البلاد ، وتضيق بهم وبنشاطهم وبما نشأوا عليه من حريات ، صدور الحكام ، فيهاجرون الى مصر والى اميركا ، حيث يبعثون نهضة مماثلة في وادي النيل ، ويقيمون اندلس جديدة في العالم الجديد .

ولئن تميزت هذه النهضة في لبنان في اولى مراحلها بالصفة الدينية الادبية ، فقد انتهت في المهاجر ، الى نهضة اقتصادية ، واخرى علمية — تجد الاولى منهما تدر على البلاد اموالا عمرت قراها ، واقامت لنا الثانية اساساً من المجد العلمي يضاهي شطراً مما كان لها ولسكانها منذ اقدم العصور من منزلة في هذا الصعيد .

فالاسلاف الذين ساهموا في بناء الحضارة القديمة والحضارة العربية كانوا اسبق الى كثير من اسسها ، واسبابها . ونذكر « الحرف » الذي رأى النور فوق تربتنا ومنها استمد القوة على الانتشار وعلى الخلود . ونذكر اشاعة « الصفر » الذي لم يبرح في كل حساب ينطق بفضل مكتشفيه على العلم والمعرفة وبالتالي على المدنية والحياة .

ويكفي ان نستعرض من هؤلاء المهاجرين اسماء من شارك العلماء الانكليز والاميركان وسواهم في البحوث الذرية ، ومن قبل ذلك من اضاف الى سلسلة المخترعات الكهربائية ، حلقات جديدة ، وكشف عن امكانيات في هذا الصعيد جعلته في عداد كبار العلماء .

غير ان الصبغة العامة التي تصطبغ بها الثقافة عندنا لم تبرح صبغة الثقافة الكلامية ، فلدينا مئات من المحامين ، ومئات مثلهم من الاطباء ، وآلاف من الاساتذة والمعلمين والكتاب والصحفيين وعدد محدود جداً من رجال العلم والعمل .

لذا كانت مشكلة الهجرة من القرية الى المدينة ، ومشكلة التوظيف وسواها من المشكلات الاجتماعية ، في تفاقم مستمر .

والواقع ان مدينة كبيروت تحتوي على نصف سكان الجمهورية الفتية ، وعلى جامعتين اثنتين وعشرات الكليات والمدارس الثانوية

مدينة عجيبة ، ليس لها ثان في العالم التمدن .

ولبنان جزء من العالم المتمدن ، في طليعة البلاد العربية ، ويمكن ان يعد في مقدمة كثير من بلاد اوروبا الوسطى ، فضلاً عن اسبانيا والبلقان .

وقد ساعده على بلوغ هذه المرتبة مركزه الممتاز ، على ساحل البحر المتوسط من جهة ، وفي قلب الهلال الخصيب من جهة ثانية هذا الهلال الذي احتضن جميع الحضارات القديمة او تبناها ، بما فيها حضارة المصريين واليونان والرومان .

وهكذا يقوم لبنان ، بجباله الشامخة ، وسهوله العريقة ، صلة وصل بين الغرب والشرق ، يلتقيان فيه على موعد وعلى غير موعد ، منذ فجر الزمان حتى اليوم .

ولئن كانت اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية والشعبية ، منذ اكثر من الف سنة ، فان هذه البلاد التجارية كانت ولم تبرح تتقن عدة لغات . وهي بذلك لا تفتأ تغني لغتها بما تلقحها به من جديد اللغات الاخرى ، وتصقلها بما تلبسها من اساليب سائر اللغات . حتى لقد اشتهر عن اهل هذه البلاد في التاريخ الحديث انهم حماة اللغة العربية ، كما عرف لبنان ببلد العلم والادب ، والعلم هنا هو العلم باللغة العربية ، والادب هو الادب العربي .

واننا لنجد اثر هذا كله في اللهجة المحكية في لبنان ، فهي ، بشهادة كبار السياح ورجال البلاد العربية الاخرى ، اصلح لهجة واقرب لهجة الى اللغة العربية المكتوبة ، لغة الشعر ، والادب ، ولغة الطبقة المثقفة في كثير من البيئات الوطنية ، وخاصة البيئة الجامعية .

ولعل من المستحسن ان نذكر بهذه المناسبة ان مصلحة توزيع ورق الصحف كانت توزع ذلك الورق خلال الحرب ، وفي الفترة التالية على نحو من ١٣٠ صحيفة ومجلة ، الامر الذي يجعل لبنان وهو بلد صغير في مساحته وعدد سكانه ، في عداد البلاد الوفيرة المطبوعات . وهذه المطبوعات في اكثرها صحف تصدر باللغة العربية الصحيحة ، وقليل منها باللهجة المحكية . وهناك ثلاث او اربع نشرات باللغة الفرنسية وواحدة بالانكليزية واثنتان بالارمنية .

وهذا يستتبع ذكر عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة ، فانهم يكادون يبلغون عدد اللبنانيين باجمعهم . فالامية قد قضي عليها ، في لبنان ، كما سبق وقلنا ، رجال الاديرة ورجال المساجد ، في القرن الماضي ، ورجال التربية والتعليم في المدارس في هذا القرن فلدينا اليوم اكثر من ٧٥ بالمئة من مجموع السكان متعلمون علماً اقله العلم الثانوي . اما الجامعيون فعددهم يتجاوز المئات .

وفي المهاجر نجد مثل نصف اللبنانيين المقيمين « هنا مليون تقريباً ، وهناك نصف مليون تقريباً » بحيث اذا جعلنا مساحة لبنان ١٠٥٠٠ كيلومتر كانت كثافة السكان امراً يلفت النظر ، ولا سيما بالاضافة الى الاقطار العربية المجاورة ، وبعض اقطار اوروبا ايضاً .

وهذا سبب يفسر احد اسباب التزاحم الشديد على مرافق الحياة ، في لبنان ، تزاحماً يذهب بكثير من النتائج المرجوة لكل جهد جماعي صاعد . ونهضة المرأة في لبنان لم تكن على هامش الحياة . بل تعدت ذلك النطاق الضيق الذي تعمل فيه نساء سائر البلاد العربية الى العمل في الصميم ، في كل صعيد ، بما فيه الصعيد السياسي ، وان لم تتمتع حتى اليوم بحقوقها كاملة .

غير ان الذي تشكوه المرأة ويشكوه الرجل في الناحية التي يعنينا امرها هو سوء التوجيه .

فالمدارس التي علمت الناس ، نساء ورجالا ، لم تربهم تربية صالحة ، ولم توجههم توجيهاً يناسب البيئة ، وتعدهم لتحمل تبعات الحياة .

فالمدرسة في لبنان لم تبرح تعمل للتعليم ، ومنح الشهادات . وفي العالم المتمدن انقلبت المدرسة ، منذ اكثر من ربع قرن ، الى مؤسسات للتربية ، تعد الاجيال الطالعة لحياة الرجولة والامومة — على حد سواء .

وفي ادوار الانتقال ، كما في دور الوضع والانشاء ، تبدو الصعوبات ، وتكثر العراقيل ، ولكن الشعوب العريقة — التي صهر الكفاح قواها ، وبلور النضال نشاطها ومفهومها للحياة وللحرية ، ومكن الاستعمار ايمانها بالاستقلال وبالسيادة ، لا تتراجع امام تلك الصعوبات ، ولا تهاب هذه العراقيل . بل تبني وتنشئ الحياة اليوم ، كما بنى وانشأ اباؤها واجدادها من قبل . وليس من عقبة — فيما نعلم — تقف في وجه ارادة الشعوب .

ولبنان يريد الحياة حراً عزيزاً سيداً . وهو يبني وينشئ . فالغد له ، ولسائر البلاد العربية — حتى في صعيد الثقافة — لان العالم عقب هذه الحرب ، وفي جو الرعب الذي يعيش فيه الناس ، منذ انطلقت القنبلة الذرية الاولى — هذا العالم المادي في نزعته وفي وسائله وفي ايمانه — بات اليوم ، كما كان بالامس ، في عصور الظلمات والهمجية ، بحاجة الى روحية الشرق ، وايمان الشرق .

والتاريخ يعيد نفسه . والشرق نفسه لن يبخل على العالم غداً بما وهبه امس ، وقبل امس ، هبة لا يرجو من ورائها مراكز استراتيجية ، ولا انتداباً ثقافيا ، او غير هذا وذاك من المنافع .

ولبناننا في طليعة الشرق ، علم في قممه نار ونور ، وفي سفوحه امن وسلام .

رشاد المغربي دارغوث

بعد عام

بقلم صلاح الاسير

☆

لم يعرف صاحبي الاستقرار ابداً . . كانت فلسفته في الحيـاة ان يعيش على غير نسق او نظام ، ولقد نزلت منـه الفوضى منزلة اليقين ، وكان يدافع عن فلسفته هذه بايمان عميق ، فما ينبغي لاهل الفن استقرار وطمأنينة . . . وكان حسبه من دنياه استعراض الرواية اليومية . . يستقبل النهار فيرى الناس يروحون في شوارع العيش ويجيئون ، كادحين جادين ، كانهم مع النهار على موعد . . . كان يضحك في سره من هؤلاء الذين اقـاموا حدوداً وسدوداً لحياتهم ، يعيشون على نحو رتيب ، فما يستطيع احد انتزاع الابتسامة من ثغورهم انتزاعـاً . . . دمى تروح وتجيء . . . اتستحق الحياة الدنيا هذه كل هذا الكدح ؟ .

كان يطرح هذا السؤال على نفسه اكثر من مرة . . . ويضحك . . . يضحك من هذه الرواية اليومية التي يراها وقد ملها سريعاً . . فما ينبغي لامثاله الاحتفال بهذه التوافه . . الا يكفيه من دنياه كتـاب مشرع الصفحات . . . وكأس يذيب فيها همومه الثمينة . . . وابتسامة هازئة لا تفارق ثغره . . . اتستحق هذه الدنيا اكثر من ذلك ؟ . . انه ليهزأ حتى من نفسه . . ويطرح على نفسه السؤال الازلي . . . من اين جئنا . . . وماذا نعمل هنا . . . والى اين نحن ذاهبون ؟ . .

ظلت هذه حاله اعواماً طوالا ، يسطر على الورق ارائه الغريبة وافكاره اللاهية وينشرها على الناس ، يحاول مخلصاً ان يرتفع بهم الى افاق العلى والسمو كما يراها هو ، وظل جاهداً في هـذا السبيل يقلب عينيه على كل وجه غضّ وعلى كل جمال يخطر وسحر يجوب الشوارع . . . وتلفت يوماً الى نفسه والى شؤونه فرأى حيـاته هو ايضاً على نحو رتيب . . . ورأى ان له هو ايضاً رواية يومية يمثلها ويرضى عنهـا وانه لم يبدل في فصولها شيئاً ، وهنا ابتداء الصراع العنيف بينه وبين نفسه . . . هو راض عن هذه الرواية . . . لانها له دون الناس جميعاً ولا يستطيع ان يجور فيهـا او يبدل ونفسه تواقة الى جديد . . . الى امر خفي غامض غريق في الاعماق يضني نفسه ويجعلها هكذا في صراع دائم معه ! . .

وبدأت نفسه تسخر منه . . . تماماً كما يهزأ هو بحياة الناس اليومية ورواياتهم الواحدة المملة ، وهنا احسّ انه مقبل على تغيير . . . وأخشى ما كان يخشاه ان يصير الى ما صار اليه الناس وان تصبح رواياتهم رواية له . . . انه يفضل ان يموت على ان يلاقي مثل هذا المصير . . . وبعـد نزاع طويل بينه وبين نفسه صمم على ان يظل حيث هو فما ينبغي حتى للهاتف النفسي ان يغير من اوضاعه وان يتدخل في شؤونه ، انه ارتضى لنفسه هـذه العزلة بعيداً عن الناس وقريباً منهم . . . يسخر منهم ومن قوافلهم الكادحة على صعيد العيش ، وهو في برجه العاجي يطل من فوق . . . ليرى الدمى الجادة العاملة في دنيا لا تستحق عنده اي جهد ! . .

ولكن الاقدار في تياراتها العجيبة كانت تعد له انقلابا مفاجئـا يجعله يسخر من حاله ، ويقهر غروره واعتداده ويوجهه توجيهـاً آخر كان يفكر في كل شيء الا فيه . . . أمن الممكن ان يصبح صاحبي احفل بتوافه الحياة ؟ . . امن الممكن ان يترك صاحبي برجه العاجي ليروح ويجيء

في شوارع العيش كهؤلاء الناس الذين كان يهزأ بهم وبرواياتهم اليومية المملة ؟.. كان هذا في نظره مستحيل الوقوع ... فما ينبغي لمثله ان يسف وان يصبح كائناً عاديا ...

ولقد غمره الغرور غمراً .. وحسب الدنيا تبدأ به ولا تنتهي لانه ليس لحياته نهاية ... كان ينظر نظرة التقديس لكل اثر يصدر عنه ... لقد اكتملت عنده ينابيع الكمال وزخر الفيض، ولكن الهاتف النفسي كان يعمل عمله ... كان صداه الضعيف يقوى مع الايام .. الى ان أصبح يدوي في اعماقه وفي اذنيه ... واستطاع هذا الهاتف النفسي ان يحطم من كبريائه وان يجعله مستعداً لكل تغيير طارىء، وهكذا وجد صاحبي نفسه ذات يوم ريشة في مهب الرياح .. تتعبه النقلة من وجه الى وجه ومن جمال الى جمال ومن كأس الى كأس ... لقد جاعت نفسه ... وبرز جوعها الكامن يطلب غذاء ... ان جوع النفس ليضني اكثر من جوع الجسد، ان جوع النفس حدث في الحياة قد يدفع بصاحبه الى القمة او يدفع به الحضيض ...

احس بتفاعل العوامل النفسية في اعماقه، وابصر بنفسه فاذا به على شفير لهاوية سحيقة القرار مظلمة الارجاء ... فخاف ... ولاول مرة يتداخله الخوف كان يسخر من الخائفين .. فما باله اصبح خائفاً ؟ ..

ورأى فيه اصحابه تغييراً مؤلماً ... واتخذت اساريره الوان الحيرة، وانتابته الهواجس، لقد اضاع البرج العاجي ... ومع ذلك لم يسر في مواكب الناس ... أكتب عليه ان يظل ابداً وحيداً ... اما من يد تأخذ بيده الى شاطيء ؟..

ولقد ناء بحاله وخشي على نفسه مغبة هذه الحيرة وتنازعته الظنون، وأخذ يستعيد مراحل حياته الماضية ... لماذا لم يبق حيث كان ... واية يد سحرية قذفت به من شاهق لتتقاذفه امواج الالم والحيرة والتساؤل ؟ ... وكان يحاول جهده ان يبدو في نظر اصحابه كما كان مرحاً هازئاً عابثاً ... ولكن غشاوة الالم على عينيه كانت ابرز من ان تختفي وراء اصطناع المرح والزهو والعبث، وكما يدور عقربا الساعة حول ارقامها في تناسق ونظام، هكذا كانت هواجسه تجوس خلال الامه توقظها من نومها وتخرج بها الى اليقظة .. كان يحس في اعماقه ان حادثاً سيجرفه قريباً ولكن الى اين ؟ .. ألى القمة ؟ .. أم الى الحضيض ؟ .. كان هذا القلق وحده كافياً لجعله في حالة لا يحسد عليها ابداً ..

وفي شتاء العام المنصرم ... منذ ما يقارب العام جرفه الحدث ... دون سابق انذار .. جرفه دون ان يعي الى اين سيقذف به ... كان يود لحيرته نهاية ... ففي اصيل يوم من الايام، والاعاصير تلف بيروت لفا، ورذاذ المطر يتساقط بشدة، والبرد القارس يفكك المفاصل ولا سيما الركب، كان صاحبي يحدق في عينين تحملها فتاة ... ولقد قرأ في عينيها الواسعتين الجميلتين فرأى فيها دعوة الى القمة لا الى الحضيض ... ورأى فيها الفراديس الموعودة .. ولقد اصبح صاحبي منذ ذلك اليوم شخصاً آخر .. لقد عرف البرج العاجي في هذه المرة في عيني ملاك صغير، ولقد وجد الطمأنينة الفائقة في ابتسامة ثغر ... ووجد اليد التي تأخذ بيده الى الشاطىء ...

واشقى ما يشقيه اليوم ان يفكر ويتصور انها ستترك يده في يوم من الايام .. ان هذا فوق ما يستطيع صاحبي تصوره، لانه اصبح يرى فيها قمته في الحياة ورائده في فراديس السعادة وامله في غد باسم جميل ! ..

وعرف صاحبي بعد لقاء الملاك الصغير ان الازمة التي مرت به لم تكن سوى جوع نفس ! ..

وان جوع النفس ليضني اكثر من جوع الجسد ! ..

وبعد

لصاحبي اليوم، وبعد عام من ذلك الحدث، الذي وجهه التوجيه الجديد، ان الشمس لم تدر وحدها دورتها السنوية حول الارض التي تدور في كل يوم مرة حول الشمس او حول ضوئها على الاصح انه هو الآخر قد دار مع الشمس وتقلب على فصول الارض وطاف مع العواصف ورف مع الاطياب واستراح على الثلوج ونزل مرابع الحر اللاهب وتنقل على الاغصان العارية، ولقد قطف الثمار بعد ان شهد مولد البراعم وأتم العطور .. ويهدأ صاحبي لنفسه اليوم بعد عام على هنيهة النجوى ... تلك الهنيهة التي اقبلت عليه من غير موعد في مثل هذا اليوم منذ عام كامل ! ..

وكأنه وهو يهدأ الساعة لنفسه مسافر عاد من رحلة طويلة ينفض عنه الساعة غبار السفر ويستعرض ذكريات تلك الرحلة البعيدة بعد ان قطع مرحلتها الاولى ليعاود من جديد الكرة صوب الرحلة المقبلة التي تنتظره غداً لعام جديد يحضنه الغيب ويحنو عليه المجهول وتورق على سرابه الاماني

والامال : واني لشديد الكلف والاهتمام بما يدور بخلد صاحبي الساعة، واني لاراه الآن وعلى وجهه اسارير غبطةغامرة وعلى عينيه بريق غد اخضر ، وعلى شفتيه اسم من خمسة حروف يندى على شفتيه ربيعاً دافق الدفء والخير في قلبه خفقة تنشق عن ملايين الخفقات التي عصفت بالحروف الخمسة طوال العام الاول . . . وان صاحبة الاسم نفسها ما كانت لتحسب انمصيرها قد يرتبط بمصير رجل تتناقله الرياح . . . ولكنها فوجئت بالهنيهة التي تقرر مصير روحين في مثل هذا اليوم من العام المنصرم فسلبتها الهنيهة كل شيء الا انها تحب . . . وصاحبي نفسه لم يفكر فلقد سلبته تلك الهنيهةالمبدهة كل تفكير الا انه يحب . . وهنا تلاقيا . . لقد الف بينها هاتف دفع به الفضول ثم الاستقراء الى ساعة النجوى اللا واعية ! . .

وتطلع عليه الذكريات فيهذه الساعة في موكب طويل تدله على ما فعل به عامه من متناقضات غيرت من نفسه وعدت على على طبعه،وحولت من طرائق تفكيره . . ويغتبط صاحبي وهو يشهد فيلماً لذكريات العام تتنقل مشاهده بين الجبل والمدينة ، وتختلف حرارة مشاهده باختلاف الازمات فيحاول جاهداً لو يستمر هذا الفلم طويلاً قبل الشروع في تمثيل الفلم الثاني المتصل بالفيلم الاول اتصال العبير بالوردة والغمام بالماء . ولكن ما له ولماذا يفكر كثيراً في المستقبل ما دام ايمانه ما برح قوياً بنفسه وبالتي شاركته دور البطولة في فيلم العام الذي ينقضي بانقضاء هذا المساء . فالمسرح رحب والفصول ستتعاقب عليها تعاقب الفصول الماضية ، وساعة النجوى الاولى ما تزال حارة في عروقها تدلها على الطريق وتلهمها سبيل السعادة ومراقي الهوى الابريز ! . .

ويلتفت صاحبي الى امسه فيرى كيف كان في طليعه رواد الارض لا السماء ،حياته زوابع مجنونة لا وجهة معينة لها تدور وتدور الى غير ما مستقر لها ، فتهدر به الالتفاتة هدراً يتزل به الى مهاوي الامس ليرى كائناً آخر يتنازعه القلق وتتعهده الفوضى ، نهاره كليله وصباحه كمسائه ، يسير ويسير في دروب مظلمة يحسبها منيرة، وتسيطر على اعصابه فكرة الآن لافكرة المقبل من الزمن . . . كان يومض ليحترق لا ليضيء . . . ويسهر لينتحر لا ليحيا ، ويبتسم للناس ليحتقرهم لا ليحمل اليهم سعادة الابتسامة . . . كان يحيا ليمثل على مسرحين واحد له وواحد للناس . هذا امسه امام عينيه . . . الم تقل له هي اكثر من مرة انها لا تحب امسه وانها تود مخلصة لو ذلك الامس ما كان له في يوم من الايام . .

وانه ليكذب عليها وعلى نفسه اذا وافقها على هذا التمني الذي لا طائل تحته . . . هو لا يعرف ايحب امسه ام يكره امسه . . . ولكنه على كل حال ضنين بهذا الماضي الذي تصطرع فيه الايام والليالي بين الظلمة والنور بين القمم والمستنقعات ، بين توأمين يسكنان في جسم واحد استطاعا في عهود خلافها ان يجعلاه مرموقاً بين الناس ! . .

لا لا لا . . . فلو لم يكن له ذلك الماضي لما كان له هذا الحاضر ولما اطلت عليه في مثل هذا اليوم هي نفسها بوجهها المدلّ وعينيها الواسعتين وثغرها الذي ما برح يحار بالسؤال . . . وينتهي صاحبي الى قرار واحد ، ينتهي الى اصراره على ماضيه ، وان من السخف ان يقتطع الانسان من عمره اعواماً حفل بها وحفلت به فاصبح بها لا بسواها كائن اليوم وكائن الغد ! . .

ويؤكد صاحبي في هذا اليوم اعتداده بما انتهى اليه امره . . . اليس مطلبنا نحن جميعاً في هذه الحياة ان يكون لنا كائن آخر يفكر فينا في كل دقيقة ، لقد اصبح لصاحبي هذا الكائن ، وليس يهمه بعد ذلك الا ان يستحق هذا الاهتمام وهذا التفكير وان يحقق بعض الرجاء والامل في حاضره ومستقبله .

ويبلغ به تفاؤله اليوم حداً قصياً ، وماذا عليه ؟ . . لنتركه في تفاؤله فالحياة دائماً لامثاله المتفائلين . . .

واني الساعة لاغتبط معه ، وتأخذني نشوة الظفر والمشاركة ، لان النصر الذي احرزه صاحبي كان نصراً لي . . . السنا توأمين في جسم واحد ، ان هذا التوأم الذي يحتفل اليوم بانقضاء العام الاول على حبه الكبير قد اشقاني واسعدني منذ ولدنا معاً الى يومنا هذا . . . انه على كل حال هو الذي ينظم الشعر ويقتطف من الاعماق ويكتب هذه القطعة التي ليس لي فيها سوى فضل تسجيلها ! . . اذا كان هنالك ثمة فضل ! . .

وفي الاغوار . . . عند نهايا اللجج الزرقاء في بحار المستقبل يضحك التوأم للملاك الذي ارتفع به منذ عام . . . يضحكان معاً لغد افضل . . . ومستقبل باسم جميل ! . . وتشرق على شفتيه الحروف الخمسة التي تؤلف في انسجامها لحن اسمها الحبيب ! . .

صلاح الاسير



ظلال الامس

☆

للسيدة زهرة الحر

صور

•

حدثيني يا ظلال الامس عن امسي وعني
قد امني النفس بالعودة لو يجدي التمني
واحرصي ان تنقذي .. ابقت الاشجان مني
انة خافتة ، في آخر اللحن المرن .

***

كلما مرت بنفسي امنيات وصور
لم اجد بين يديَّ ، من امانيَّ الأثر
حطمي ان شئت قيثاري ولا تبقي الوتر
واسمعيني من نشيد الامس الحاناً غرر

***

حدثيني عن بلادي ، عن مقر الانبياء
عن طنين الوحي يدوي بين ارض والسماء
فبلادي جنة الخلد ومهد الشعراء
والندى والطيب في لبنان للداء دواء

***

حدثيني عن ليالينا الجميلات الخوالي
عن بساط العشب اذ يجمعنا تحت الدوالي ،
عن ربوع فجرت فيها ينابيع الجمال
ومغان لم تزل في خاطري مجلى خيالي .

حدثيني عن احاديث العذارى في السمر
عن بنات الحي اذ يمرحن في ضوء القمر
باسمات للاماني ، هازئات بالقدر
عابثات لايعانين هموماً او ضجر ،

***

حدثيني عن حديث الحب احلى ما يكون
عن جنون ما عرفنا انه كان جنون
كل ما فينا اضطراب وظنون في ظنون
وعيون في قلوب وقلوب في عيون

***

حدثيني ، رب ذكرى تبعث المدفون حياً
وتبث الروح في آمالنا شيئاً . فشيأً
حدثيني ، ربما عاد المنى يوماً اليا
انا في دنياي لم انفض من الامس يديا .

***

حدثيني ، واملأي سمعي عن الماضي غناء
ان في جنبي قلباً لم يذق قط الهناء
قد مللنا ويك يا دنيا تلاحيني الشقاء
فاسمعينا نغمة الخلد والحان السماء .

دور المحفوظات في الغرب وحاجتنا الى مثلها

•

بقلم يوسف اسعد داغر

امين دار الكتب اللبنانية

☆

لا يفقه شعب سر مستقبله قبل ان يتنبه شعور الاحترام فيه لمآتي اجداده ويدرك مآثر ابطاله . فهنا وهنا فقط يستطيع ان يبلغ ذروة الرقي .

الملك فؤاد الاول

☆

لقد القى الغرب على الشرق دروساً وعبراً عدة في امور كثيرة عرفت اممه كيف تستفيد من بعضها على قدر واسع . ولكن الامور التي لا تزال منها في درك الاهمال « دور المحفوظات » وقلة عنايتنا بها على الاجمال في هذا الشرق المتوثب . ومرد ذلك ، في نظرنا ، الى عدم احترامنا افراداً وجماعـات للوثيقة ، وعدم تقديرنا لها قدرها اللازم . فبينا ينظر الغربي الى الوثيقة الاصلية والى المستند التاريخي نظره الى الشيء تجلله القدسية والاحترام ، يحفظه ويصونه من عوادي الزمن ويعمل على الاستفادة منه علمياً ، نرى الشرقي ينظر بدوره الى الوثيقة والمستند الاصليين نظره الى القصاصة المهملة وقد علاها الاصفرار ومشت عليها معالم القدم . فان لم يتلفهـا تركها وشأنها في زاوية من داره او ادارته عرضة للغبار والأرضة والسوس والعث تعيث فيها فساداً . فكان من جراء اختلاف هذه العقلية بين تفكير الغربي وتفكير الشرقي وتقديرهما تقديراً متبايناً — اني منه ما بين الثريا والثرى — قيمة الوثيقة التاريخية والمستندات الاصلية . ان قامت في الغرب دور عديدة للمحفوظات على اختلاف حجومها وهيآتها وعصورها ، لا تقل عناية الدولة والافراد والجماعات بها عن عنايتهم بالمكتبات على شتى مناحيها ، بينما تخلف الشرق في هذا المضمار اذ لم يعن بالوثيقة وجمعها وحفظها وصيانتها واستثمارها الا ما ندر . فكانت بعض دور المحفوظات في الشرق اليوم شذوذاً وخروجاً على القاعدة العـامة المطردة في الغرب ، والشاذ لا قياس عليه .

وقد حان لنا في هذه العطفة الهامة من تاريخنا القومي ووعينا الوطني وتطورنا السياسي والفكري والعلمي والاجتماعي ان نهتم اكثر مما مضى بصيانة محفوظاتنا ، نعنى بها ونعدها علمياً وفنياً للاستفادة منها على قدر واسع . ومن المؤسف جداً ان يكون لبنان ، مثلاً ، في مقدمة البلدان الشرقية والعربية تطوراً فكرياً وثقافياً ، ثم لم يدرك فيه المسؤولون ، اليوم ، ضرورة قيام دار للمحفوظات اللبنانية اسوة بدور المحفوظات في الغرب عامة ومصر خاصة .

تعريف وتحديد

والمراد بدار المحفوظات الاهلية Archives Nationales مؤسسة وطنية هي اشبه ما تكون بدار الكتب ، تجمع فيها ، بدلاً من الكتب والمؤلفات ، الوثائق الرسمية منذ اقدم عصور تاريخ البلاد وتصان فيها ، بصورة علمية منسقة ميسرة ، سائر اوراق الادارات العامة والسجلات الرسمية وجميع الوثائق والقرارات والبراءات والمراسيم والقراطيس القديمة مما لم يعد له علاقة مباشرة بتصريف

امور الدولة وتسيير اعمالها. وعلى الاجمال فسائر الاسانيد والمصادر والمراجع القرطاسية، بين مطبوعة او مخطوطة مما يمت بسبب مهما دق او استرق الى تاريخ البلاد. فدار المحفوظات، بالنسبة للاوراق الرسمية تمثل ما يمثله المتحف او دار الآثار لمراسم البلاد من عاديات ورقم وكتابات ومسكوكات ورنوك وشعائر، وهلم جراء.

ونحن نرى كما يشاطرنا هذا الرأي كثيرون من مفكري البلاد العربية ان انشاء دور المحفوظات الشرقية امر ضروري للغاية، ان صح السكوت او التغاضي عنه فيما مضى، يوم لم تكن دفة الامور في ايدينا، فالسكوت او التغاضي عن هذه القضية العلمية يعد تقصيراً وتفريطاً في جهاز البلاد العلمي، في هذا العهد الجديد من السيادة والعزة والاستقلال الذي اطل على الشرق، اذ تنصرف فيه امه الى استكمال عدتها الاستقلالية حتى ما كان منها في مأتى العلم والثقافة.

فوائد دار المحفوظات

اما الفوائد التي نحصل عليها من انشاء دار المحفوظات فكثيرة، اهمها:

١ — صيانة الاوراق والسجلات وجميع الوثائق التاريخية التي تتعلق من قريب او بعيد، بتاريخ البلاد على اختلاف عهودها. فقد عرفنا، والاسى يحز في النفس حزاً، ان معظم تلك الاوراق اصبح عرضة للتلف والضياع والبعثرة، اذ كثيراً ما نرى تلك القراطيس مكدسة اكداساً في زوايا بعض قصور الحكومات، او في اقبية بعض السرايات. تعاني من التمزيق والتشويه والتشنيع الامرين عدا عما يصيبها من العوامل الطبيعية واذاها الفتاك كالرياح والاهواء والامطار والرطوبة. فتنتشر بينها العفونة والعث وكلاهما من افتك اعداء تلك المحفوظات. ومن الدوافع التي يجب ان تهيب بالرجال المسؤولين للتسييج حول هذه المخلفات العزيزة انه يوجد بينها ما يربطها بهم او بآبائهم وجدودهم وشائج الصلات والروابط. فقد اسهموا في تحريرها وحل ما فيها من مشكلات وقضايا وتصريف الامور التي تأتي على ذكرها. فان لم يتداركوها لعلاقتها بتاريخ بلادهم فليس اقل من ان يهتموا بها لعلاقتهم وذويهم المباشرة بها.

٢ — تسهيل المراجعة — ان حفظ هذه المستندات والاوراق الرسمية على اختلافها وصيانتها من عوادي الدهر وعبث الانسان وتبويبها حسبما تقتضيه الطرق الفنية والشرائط العلمية المتبعة في البلدان الناهضة والامم الراقية، كل هذا يجعل من اليسير جداً امر مراجعتها لكل من يرغب فيها، وذلك باقل ما يمكن من الوقت والعناء. وليس من يجهل ان اشد الناس اضطراراً للرجوع الى تلك المحفوظات التي نطالب اولياء الشأن يوجوب صيانتها باسرع ما يمكن، هم رجال الحكم انفسهم ونواب الامة وهذا الفريق من المؤرخين الثقاة، اذ تضطرهم مهامهم من جهة والتقصي العلمي من جهة اخرى، الى البحث عن امور قد تكون اسباباً ومقدمات او نتائج لبعض الشؤون التي يعالجون.

ولما كانت تلك الوثائق على اختلافها من اهم مصادر تاريخ بلادنا الاجتماعي والاقتصادي والقضائي والعمراني والادبي كان من اللازم المحافظة عليها بغيرة واحترام وبشيء من الخشوع والقدسية. بل كان من الجريمة والعار معاً ان نفرط بها فترضى بان يمسها الاذى او يلحق الضر او يصيبها الضيم فاذا ما حفظت في دار خاصة كانت في مأمن من جميع الفواعل والمؤثرات لا تخشى معها شراً فتسهل مراجعتها اذ ذاك لمن تتعرف نفسه اليها.

نظرة في دور المحفوظات خلال التاريخ

فطنت الامم التي نشطت في التاريخ قديماً وحديثاً، الى ضرورة انشاء دور للمحفوظات، حتى انك تكاد لا ترى جمعية منظمة غير عامدة الى انشاء دار لمحفوظاتها، تضم فيها الوثائق والمقررات الرسمية الصادرة عن هيئة ادارتها، مما له علاقة باهدافها واغراضها. وما المكاتب القديمة التي تعثرت بها معاول المنقبين في اشور وبابل ومصر وآسية الصغرى في الحقيقة الا دور للمحفوظات.

يحدثنا التاريخ — والتاريخ ابو العبر لمن يسمع ويعي — عن ربيدة (هو ما تحفظ فيه الاوراق) مهمة قامت قديماً في مصر، كما يذكر لنا المؤرخ اليهودي يوسيفوس داراً للمحفوظات في مدينة صور. واننا لنرى في تاريخ حصار اورشليم، على يد طيطس القائد الروماني، ان النار شبت في جوار الهيكل في القدس، فما لبثت ان التهمت ما فيه من خزائن الكتب والاسفار ومجاميع المصادر والوثائق.

اما في اثينا فكانت تلك الاسانيد تحفظ في دار خاصة تسمى ارخيون Archaion ثم قرروا حفظها في هيكل خاص بها يسمى Metroon. وهكذا فعل الرومانيون الذين انشأوا في عهد الجمهورية داراً لحفظ هذه الوثائق الرسمية يعهدون بحفظها الى امين خاص ومأمورين اكفاء. اطلقوا عليها اسم Aerarium.

ومن الرومانيين امتدت هذه العادة الى

الممالك التي قامت على انقاض امبراطوريتهم فترى مثلاً قياصرة الروم في القسطنطينية يعملون على انشاء مثل هذا المعهد. وهكذا فعل البرابرة الغزاة الذين انقضّوا على المملكة الرومانية ليدكوا معالمها .

ومن يسرّح الطرف الآن في الممالك الغربية من كبيرة وصغيرة ير كيف ان العناية بالعلم عندهم ممثلاً في الوثيقة والمصدر والقرطاس ، قضت بانشاء دور المحفوظات يودعونها الوثائق والعقود والعهود الرسمية المتعلقة بنواحي نشاط الامة او المقاطعة او الناحية، لتقيها من عوادي الدهر وعبث العابثين. فيعهدون بحراستها وادارتها الى قيم خبير يتلقى هذا الفن في مدارس المكتبات ودور المحفوظات فيعنى بتبويبها وتنظيمها على الاصول المتبعة ، فيسهل مراجعتها على القاصي والداني .

اهم دور المحفوظات الشرقية

دار المحفوظات المصرية

اعتمدنا في تعريف المحفوظات المصرية وما فيها من وثائق على ما جاء عنها في المقدمة التي وضعها الاستاذ الدكتور اسد رستم لمؤلفه: الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا : القسم الاول ، الاوراق السياسية ، وقد ظهرت مجموعتها في خمسة مجلدات نشرتها دائرة العلوم والآداب في الجامعة الاميركية في بيروت . كما اخذنا بعض الايضاحات والمعلومات من مقدمة مجموعته الثانية التي ظهرت بين ١٩٤٠ — ١٩٤٣ ، بعنوان « المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام » نشر منها للآن ثلاثة مجلدات .

كذلك اعتمدنا في التعريف عنها مقالا ظهر بعنوان « دار المحفوظات المصرية »(١) وعلى بحث آخر بعنوان « مكتبة سراي عابدين» ظهر في المكشوف (٢) كما اعتمدنا غيرها من المصادر الفرنسية التي سيأتي ذكر بعضها فيما يلي .

اقسامها — تقسم المحفوظات المصرية في الوقت الحاضر الى ثلاثة اقسام رئيسية :

١ — محفوظات سراي عابدين الملكية

٢ — مجموعة الدفترخانة المصرية

٣ — سجلات القضاء الشرعي

محفوظات السراي الملكية

تشغل هذه المحفوظات ثلاث غرف من الجناح الخاص بجلالة الملك. وهي تقسم الى قسمين: المكاتبات العمومية والمكاتبات الخصوصية. ويقسم كل من هذين القسمين الى صادر ووارد. واهم ما في الصادر من المكاتبات العمومية ما ارسل الى اولي الامر في الاستانة والى وكلاء الحكومة المصرية وما وجه الى المقامات المحلية المصرية. واهم ما في الوارد من هذه المكاتبات ما جاء من الاستانة سواء من رجال السلطنة ام من وكلاء مصر.

والمحفوظات المصرية الملكية دفاتر واوراق. والدفاتر على ثلاثة انواع: دفاتر تنسيق وترتيب ، ودفاتر قيودات ودفاتر فهارس. ودفاتر القيودات تشمل الارادات والافادات وقرارات المجالس والدواوين. والصادر في محتويات الدفاتر محفوظ بنصه الكامل. اما الوارد فانه ملخص تلخيصاً. واوراق المحفوظات اما ارادات صادرة او مفاوضات واردة او فرامانات سلطانية او غير ذلك .

وقد كان لجلالة الملك الراحل المرحوم فؤاد الاول عناية خاصة بتاريخ مصر ولاسيا بتاريخها المعاصر وبتنظيم المحفوظات المصرية الملكية في سراي عابدين. فعمد بادىء ذي بدء الى استنساخ تقارير قناصل الدول في مصر في القرن التاسع عشر ، ثم بنشر هذه التقارير الى بعض رجال الاختصاص فظهر منها اكثر من ٢٥ مجلداً .

وفي سنة ١٩٢٥ شكّل لجنة لدرس اوراق الحكومة المصرية في عهد والده اسماعيل وجديه ابراهيم ومحمد علي، مؤلفة برئاسة صاحب السعاده حسن نشأة باشا وبعضوية احمد تيمور باشا وادولف قطاوي بك والمسيو جورج دوين G.Douin فأقرت هذه اللجنة اموراً منها :

تنسيق الاوراق وتصنيفها .

وضع فهارس لها يشمل ارقامها المتسلسلة وتواريخها واسماء الاشخاص الذين ارسلوها او تلقوها وتلخيص مضمونها .

ترجمة المهمة منها .

وقد عهد الى الدكتور المستشرق الايطالي غريفيني مدير المكتبة في السراي الملكية بدرس وتحقيق اوراق السراي . فبذل الكثير من وقته في ذلك . فلما توفي استدعى جلالة الملك في اوائل ١٩٢٦ مستشرقاً فرنسياً هو الاستاذ جان ديني J. Deny وامره ان يتابع درس الاوراق وتصنيفها . فقضى اربعة اعوام في التنسيق والتنظيم والدرس والتمحيص . وبعد ان اكمل قسماً كبيراً من عمله وضع كتابه المشهور : **Sommaire des Archives turques du Caire- Le Caire,1930.**

وهو مؤلف نفيس مشبع الفصول مستوعب الاطراف فيه وصف دقيق للخطة المتبعة في ترتيب هذه المخطوطات وتنسيقها . وقد كسرت على مقدمة و ٢٧ فصلاً . وفي

(١) — المصور عدد ٤٢٣ تاريخ ت٢ ١٩٣٢

(٢) — عدد ٢٠٥ تاريخ ١٠ تموز ١٩٣٩

المقدمة بحث مستفيض في تاريخ المحفوظات المصرية الملكية وطرق حفظها ووصف مسهب لنظام الحكم في عهد العزيز. وفي الفصول التي تلي هذه المقدمة وصف اجمالي موجز لكل من اقسام المحفوظات.

ويلي المؤلف الذي وضعه «ديني» بصدد هذه المحفوظات مؤلف آخر يتعلق بها ايضاً وضعه المؤرخ حاييم ناحوم بعنوان: «مجموعة الفرامانات السلطانية الموجودة في السراي الملكية- Recueil des Firmans Impériaux Ottomans addressés aux Valis et aux Khédives d'Egypte - Le Caire, 1934.

الدفترخانة المصرية

بُنيت هذه الدار سنة ١٩٢٨ وكانت تشمل يومئذ ٤١ مخزناً معداً لحفظ دفاتر الحكومة ومستنداتها. فنقلوا اليها جميع محفوظات الدواوين. وفي عهد اسماعيل الحقت بوزارة الداخلية اسوة بفرنسا – وفي ١٧ نيسان ١٩٠٥ صدر امر عال بفصلها عن وزارة الداخلية والحاقها بوزارة المالية. وفي ١٨ كانون الاول ١٩٢٤ قرر وزير المالية الاستبدال باسمها اسم «دار المحفوظات المصرية». وفي سنة ١٩٢٨ استبدل باسمها اسم دار المحفوظات العمومية وقد اضيف الى مباني الدار القديمة ما جعل مخازنها اليوم ٨٧ مخزناً ركزت الى جدرانها رفوف من الخشب قسمت الى عيون كبيرة.

وهي تقسم الى ٦ اقسام: فالقسم الاول يتسلم المحفوظات التي ترسل الى الدار من الجهات المختلفة، وتحفظ في القسم الثاني محفوظات المواليد والمتوفين، وفي الثالث محفوظات الوجه البحري والمحافظات، وفي الرابع محفوظات الوجه القبلي. وينقسم الخامس الى ٣ اقسام: القسم التركي وهو يحتوي على المحفوظات التركية من فرامانات شاهانية واوامر عالية، والقسم الفرنجي وهو يحتوي على بعض محفوظات الوزارة المالية والداخلية والاشغال العامة والمعارف ومحفوظات الدائرة السنية، والثالث القسم العربي: وهو يحتوي على محفوظات المصالح الملغاة كالمجلس المخصوص الذي كان يعد بمثابة مجلس الوزراء.

مجموعة القضاء الشرعي

تتناول هذه المجموعة اوراق القضاء في مصر منذ الفتح العثماني وهي مقسمة الى ستة اقسام رئيسية، منها مجموعة قيّمة لحجج الملوك والسلاطين تبدأ من سنة ١١٥٩ وتنتهي في السنة ١٥٩١.

المحفوظات العثمانية

هي مجاميع هامة من الوثائق التاريخية التي تتعلق بتاريخ الشرق العربي والاسلامي. وتنصرف جهود الدولة التركية اليوم الى تنسيق هذا المجموع الضخم من الوثائق الهامة وتصنيفه تصنيفاً علمياً يصح لنا ان نقارن به اهم المحفوظات في الغرب.

وقد ظهر مطبوعاً قسم من هذه الفهارس المنسقة نشر من قبل العالم الالماني فرنسوا بابنجر بعنوان: Fr. Babinger-Die Geschichtsschreiber der Osmanem und vhre werkə (80 Leipzig, 1927) وهو يذخر بالمستندات والمراجع عن الادباء الذين نبغوا من اواخر القرن الرابع عشر حتى سنة ١٩٢٥.

ووضع السيد محمد صورايا فهرساً هاماً لبعض هذه المحفوظات بعنوان: «سجلي عثماني» ظهر بالتركية في ٤ مجلدات، في الاستانة عام ١٣٠٨ ضمنه معلومات هامة مؤيدة بالمصادر والمراجع عن جميع الاشخاص الذين كان لهم بعض الشأن في تاريخ الدولة السياسي. وهي على الاجمال معلومات دقيقة تضم فيما تضمه الاشارة الى الوظائف التي قام بها الشخص والاشارة الى الفرامانات والقرارات المتعلقة بتعيينه.

ولكي يتبين القارىء الكريم مدى اهمية المحفوظات العثمانية نلمح من بعيد انها تضم بضع مئات من سجلات الدوائر العقارية (نحو ١٠٠٠ سجل) ونحواً من ٦٠٠ بالة تضم اوراقاً خاصة بالوقف وادارته اما محفوظات الباب العالي التي فقد منها قسم كبير فتضم نحواً من ٥٠٠٠٠ وثيقة، عدا عشرات الالوف من الوثائق التي تتعلق بوزارات المالية والعدلية والمحاكم الشرعية ووزارة البحرية. هذا عدا الوف الوثائق التي لا تزال مبعثرة ومشتتة، هنا وهنالك في البلدان التي كانت تابعة للدولة العثمانية.

وقد رأى اولياء الشأن في الجمهورية التركية بثاقب نظرهم ان الضرورة ومصلحة العلم يقضيان بتنظيم هذه المجاميع الضخمة من المحفوظات الثمينة فعهدوا الى الاخصائيين بالعمل في هذا الشأن، وقد سار العمل شوطاً طويلاً، وظهرت نتائج هذا المجهود العلمي بنشر «دليل المحفوظات في السراي القديم (طوبقبو)»، نشر منها الآن جزآن، ظهرا في استانبول سنة ١٩٣٨ (1)

وقد خص جان ديني نفسه الذي تولى تنسيق المحفوظات التركية في السراي الملكية المحفوظات العثمانية بدرس مستفيض نشره في مقالين ظهرا في المجلة الاسيوية الفرنسية في عددها الصادر ت ١ – ك ١ ١٩٣٠ ص ٢٣٩ – ٣٠٥ ونشر بعض العلماء الاسوجيين امثال Kurat و Zettersteen

(١) – راجع فيها نقداً علمياً بقلم P.wittek ظهر في مجلة بيزنطيون مجلد ١٣ (١٩٣٨): ٦٩١-٩٩

بعض دروس تتعلق بالمحفوظات العثمانية بعنوان Turkshe Urkunden ظهر في مدينة ايسال عام ١٩٣٨ ، كما نشر العالم المجري L. Fichte درساً خاصاً بهذا الصدد عن بعض المحفوظات العثمانية بعنوان: Turkische Schriften aus den archiv Palatins N Esterhazy-Budapest, 1932 وقد قام بين فرنسا وتركيا علاقات مالية وتجارية وسياسية وطيدة امتدت عدة قرون كانت المحفوظات التي تتعلق بها ركناً من اركان التاريخ للشرق العربي والاسلامي . وبعض هذه المحفوظات العثمانية موجود في مرسيليا[٢] وبعضها ، وهو الاهم في مدينة الجزائر .

غير ان القسم الاعظم من هذه المحفوظات التي تتعلق بالشرق يعود اصلها الى الادارات الفرنسية التي كانت ذات علاقة بالشرق ونشاطه على اختلاف نواحيه كغرفة مرسيليا التجارية ، او بعض الوزارات الفرنسية . ومحفوظات هذه الوزارات التي تهمنا في الدرجة الاولى هي على الاجمال منسقة تنسيقاً علمياً وهي لا تزال محفوظة في الوزارات التالية:

١ – محفوظات وزارة البحرية ، يقوم اليوم معظم هذه المحفوظات في دار المحفوظات الوطنية Archives Nationales وهي دائرة لا تقل شأناً واهمية عن دار الكتب الاهلية في باريس، تشابه بعض الشبه قصر آل العظم في دمشق مقر المعهد الفرنسي سابقاً . وقد ارسلت هذه المحفوظات الى هذا القصر—قصر المحفوظات الوطنية—في اواخر القرن التاسع عشر . ودليلنا للتعرف اليها نوعان من الفهارس . الاول وضعه نوفيل Neuville بعنوان : « الفهرس الموجز لمحفوظات وزارة البحرية Etat Sommaire des Archives de La Marine,Antérieureàla Révolution قبل الثورة الفرنسية . وهو يفصل المبادىء العامة التي يقوم عليها تصنيف هذه المحفوظات وتنسيقها العلمي، كما يعطينا فكرة صحيحة عن محتويات هذه المجاميع . امـا الفهرس الثاني الذي يفتح امامنا كنوز هذه المحفوظات فهو الفهرس القيم الموضوع عام ١٨٨٥ في ٧ مجلدات بعنوان: « فهرس محفوظات وزارة البحرية ، السلسلة ب B : الادارة العامة يعطينا وصف كل وثيقة من هذه الوثائق التي تعد بعشرات الالوف . وقد وضع صديقنا المرحوم شارل دەلا رونسيير Ch. De La Roncière قيّم دائرة المطبوعات في دار الكتب الاهلية في باريس (٥ ملايين مجلد) بعنوان: « دليل مكتبة وزارة البحرية—باريس ١٩٠٧ »، فصّل فيها محتويات هذه الخزانة وما بقي فيها الى الان من انواع المخطوطات والمحفوظات .

٢ – محفوظات وزارة الحربية

مجاميع هـامة من عدة الوف من المحفوظات، غنية على الاخص بالرسوم والخطط الحربية والتصاميم العسكرية والبيانات الكشفية التي لها مساس بالشرق وباقطاره الواقعة حول حوض البحر المتوسط الشرقي: الجزائر وتونس وسوريا ومصر وطرابلس الغرب . وترى ذلك كله مفصلاً ومبسطاً في فهرس مخطوطات المكتبات العامة في فرنسا: مكتبات وزارة الحربية —باريس ١٩١١ » كما تجد ذلك ايضاً في الفهرس الموجز للمحفوظات التاريخية المودعة وزارة الحربية » هذا الفهرس الذي وضع ونشر في باريس سنة ١٨٩٨ .

٣ – محفوظات وزارة الخارجية

هي اكثر هذه المستودعات الثلاثة اهمية وخطراً وشأناً من حيث ضخامتها وعددها وعلاقتها المباشرة بتاريخ الشرق العربي والاسلامي . ارّخ لهذه الودائع الهامة من المحفوظات التاريخية المسيو . باشيه A. Baschet في كتابه المعنون: « تاريخ ايداع محفوظات وزارة الخارجية « Histoire des Archives des Affaires Etrangéres» ظهر في باريس ، سنة ١٨٧٥ . وهذه المحفوظات منسقة تحت عنوان: « ادارة القنصليات » منها قسم لا يزال في وزارة الخارجية يضم المراسلات السياسية والمراسلات القنصلية بعد سنة ١٧٩٢ وقسم هام منها ارسل لدار المحفوظات الوطنية Archives Nationales حيث يسهل مراجعتها لما هي عليه من حسن التنسيق والتصنيف والتنظيم نجد بينها المراسلات القنصلية قبل عـام ١٧٩٢ واليك اهم الاجزاء التي تتوزع اليها هذه المحفوظات القنصلية:

١ – اوامر وتعليمات رسمية خاصة بالشرق (١٧٥٦–١٧٩٣) تضم السجلات من ١–٣٨

٢ – حلب (منذ سنة ١٦٣٠–١٧٩٢) سجلات ٧٦–٧٩

٣ – الاسكندرونة (١٦٩٦–١٧٧٨) ٩٨ – ٩٩

٤ – الاسكندرية سنة ١٦٩٢ – ١٧٩١) تضم سجلات ١٠٠–١١٤

٥ – بغداد سنة ١٧٤٢–١٧٩١) تضم سجلات ١٧٥–١٧٧

٦ – البصرة سنة ١٧٤٣–١٧٩٠) تضم سجلات ١٩٧

٧ – بنغازي سنة ١٧٣٠–١٧٥٥)

(٢) – المجلة الاسيوية الفرنسية ١٩٣١ : ١٧٦–١٧٨

تضم سجلات ٢٠٦

٨ القاهرة سنة ١٦٦٩ — ١٧٨١)
تضم سجلات ٣١٣—٣٣٦

٩ — الاستانة سنة ١٦٣٧ —١٧٩٠)
تضم سجلات ٣٦٧—٤٤٨

١٠ — القدس سنة ١٦٩٩—١٧١٧)
تضم سجلات ٦٢٨

١١ — وهران الجزائر ١٧٣٢—١٧٥٤
تضم سجلات ٩٢٧

١٢ — رودوس سنة ١٧٣١—١٧٩١
تضم سجلات ٩٥٢—٩٥٣

١٣ — الرشيد سنة ١٧٠٨—١٧٧٣
تضم سجلات ٩٦٧—٩٧٠

١٤ — عكا سنة ١٧٢١—١٧٩١
تضم سجلات ٩٧٨—٩٨١

١٥ — سالونيك سنة ١٦٨٦—١٧٩٢
تضم سجلات ٩٩٠—١٠٠٤

١٦ — جزيرة كيّو سنة ١٦٩٦— ١٧٩٢ تضم سجلات ١٠٠٩—١٠١٤

١٧ — صيدا سنة ١٦٤٥—١٧٩٠
تضم سجلات ١٠١٧—١٠٤١

١٩ — طرابلس الغرب سنة ١٦٤٢ —١٧٩١ تضم سجلات ١٠٨٨—١١١٣

٢٠ — طرابلس لبنان سنة ١١٦٧ —١٧٩٢ تضم سجلات ١١١٤—١١٢٤

هذه هي اهم المستودعات المحفوظات الخاصة بالتاريخ الشرقي العربي والاسلامي في اهم دور المحفوظات في مصر وتركية وفرنسا اتينا على ذكرها بايجاز والتعريف باهم فهارسها

الدول العربية والمحفوظات التاريخية

تبدت للجميع ، من هذه اللمحة الخاطفة عناية الدول الراقية التي اخذت بنصيب وافر من النهضة العلمية في الغرب والشرق واهتمامها بكنوز محفوظاتها والسهر على صيانتها من عبث العابثين واستثمارها علمياً وفنياً ، وتقريبها اصولاً للعلوم التاريخية ، لمن يرغب فيها .

وقد عرضنا ما عرضناه ورفعنا زاوية من الستار لتتبين دولنا العربية والقائمين على مقدراتها اهمية هذه الدور في اجهزة البلدان الوطنية العريقة في العلم فلعلها تبادر ، مجتمعة ومنفردة ، الى العناية بمحفوظاتها وجمعها في مظان ومستودعات خاصة تعهد بها الى اخصائيين . ونحن نرى ان تعنى امانة جامعة الدول العربية، فيما تعنى به من امور التعاون الثقافي بين الدول التي تتألف منها الى وضع منهاج عام يصح السير بموجبه فيوجب على الدول العربية وحكوماتها انشاء دور للمحفوظات حيث لا دور لها لان تجمع فيه كل ما يتعلق بتاريخها .

ومن الامور التي نريد ان نهمس بها في اذن وزراء التربية الوطنية ووزراء الخارجية في كل من هذه الدول الرجاء الحار بارسال بعثات علمية الى الغرب لهذا الغرض يكون اعضاؤها ممن توفرت لهم اسباب التحصيل الجامعي واسباب الوقوف على مناهج الدرس التاريخي وما اليها من علوم مساعدة، ينسخون من هذه المحفوظات المكنوزة في دوائر المحفوظات في فرنسا وانكلترة وايطاليا والفاتكان ما له مساس مباشر بتاريخ ربوعنا الشرقية من جميع نواحيه . فترسل هذه المستندات ، مصورة كانت او منسوخة ، الى دور المحفوظات في كل من دول الشرق المتعلقة بها .

كذلك نتمنى عليهم ان يكون لدى كل معتمدية من المعتمديات التي يقيمونها للتمثيل الديبلوماسي في الغرب ملحق ثقافي يشرف على هذا العمل ويغذيه .

كذلك نتمنى ان يكون في مكتبة امانة جامعة الدول العربية المنوي انشاؤها نسخ من تلك الفهارس التي وضعت في الغرب تعريفاً بالمحفوظات المكنوزة في عواصم الدول الغربية يستطيع من يشاء الرجوع اليها للتقصي عن المصادر والمراجع التي يرغب في الركون اليهـا سنداً للبحث.

مطالبتنا بأنشاء دار للمحفوظات

ما كدنا نرجع من باريس في اواخر سنة ١٩٣١ إثر ان ارسلتنا الحكومة اللبنانية الكريمة للتخصص على نفقتها بفن تنظيم المكتبات ودور المحفوظات حتى قابلنا اولياء الشأن اذ ذاك في وزارة المعارف وباحثناهم في امر انشاء دار للمحفوظات اللبنانية والضرورة الملحة الى ذلك . فرفعنا اليهم تقريراً تبدّى لنا بعد البحث معهم في ما تضمه من منهاج للعمل خاص بهذه الناحية ان الاخذ بالامر قضية مبتسرة لم تنضج ، بعد ان لم يلاق مشروعنا تفهماً صحيحاً ولا التشجيع الكافي . ثم كتبنا بعد قليل من هذا مقالاً نشرته الاحرار في غضون تشرين الثاني ١٩٣٢ .

ولما كنا نزداد رسوخاً في الاعتقاد بضرورة هذه المؤسسة في لبنان رفعنا بتاريخ ١٦—٢—٩٤٢ الى معالي وزير التربية اذ ذاك ، اقتراحاً ارسلناه باسم امانة دار الكتب اللبنانية التي كنا نقوم بها وكالة لفتنا فيه نظر معاليه الى هذه القضية الهامة مقترحين عليه انشاء دار للمحفوظات اللبنانية .

ولا شك ان القارىء الكريم يود ان يعرف ماذا كان من وقع هذا الاقتراح ودرجة تفهم المسؤولين في الوزارة له . فقد رد الوزير على هذا الاقتراح بوعز فيه الى امين الدار بوجوب ابلاغ السيد يوسف داغر صاحب الاقتراح انه لا يهتم بامور لا تعنيه!!!

يوسف اسعد داغر

الى معذبة

ظلمها اهلها وظلمها الناس فخرجت لتعمل وكان
عليها ان تعيش وسط اللهيب فلا تحترق ،
وبين الذئاب فتسلم من انيابها . . .
ما عقَّت الاهل وما عبست في وجه الناس ، ومضت في جهادها صابرة على العذاب ، هادئة في جنون العاصفة . وانك لتقرأ الحزن في عينيها ، والألم في ابتسامتها ، والشقاء في صورتها ؛ وهي مع ذلك مثال في الوداعة واللطف وحسن السيرة .

☆

حلمي النوال

صيدا

سيري ، ولو صَعُبَ المسير ، وعزّ في الدنيا الهناءْ
هذا الوجود مصدّع الأركانِ مضطرب البناء
هي ظلمة الآثام تنخر فيه كالداء العياء
فأدالتِ الأفكار حتى انحطّ ساميها وساء :
ألدرهم الرنّان معبود الجميع على السواء
وكأنما قومي أصابهمُ جنونٌ من ضراء
مسخوا عقارب أو ذئاباً ، دأبها شرب الدماء
أرثي الفضيلة بعدما دُفنتْ ، وهل يجدي الرثاء ؟ . . .

***

حوّاء . . . يا أمّ الخليقة ما ولدتِ سوى شقاء
هل هذه السمراء فاتنة النهى طينٌ وماء ؟ . . .
أم أنّها لحد الخلود يرفّ في أرض الفناء ؟ . . .
أم أنها ظلّ البتول يتيه في الدنيا ازدهاء ؟ . . .
أم أنها الايمان دثّره الآلهُ بها رداء ؟
أم خمرة الفردوس في كأس الهوى شعّتْ سناء ؟
تلك الوداعة إذ جرتْ بضاوعها مجرى الدماء !
فتمثّلتْ نوراً يشيع ببسم حُلوِ الروّاء
وتنهدت وهي المنيرة بين أدغال الهراء
سكرى من الآلام كالشمع السهوم اذا أضاء

***

سيري على الأرض الشقيّة وابعثي فيها الرجاء
غفتِ الضمائر ايقظيها واخفقي خفق اللواء
تلك البقايا من حطام الحسنِ أدركها العفاء
رُدّي اليها الروح او رفّي سماءً في السماء
أنتِ المثال وفي هداكِ الكون أشرع للضياء
هذا الاباء يعلّم الانسان ما معنى الاباء
هذا النقاء يهذّب الأرواح من اثم الرياء
هذا الحنان يثير في الجبار دمع الكبرياء
ويبث في المظلوم روحاً في حواشيه العزاء

***

سمراء . . . يا ترنيمة الأسحار يا حلم الضياء
أنت ابتسام الله في الدنيا وبلسمة الدواء

قهقهات امرأة

بقلم
الآنسة سميه حموي


دمشق



تسير بها النهارات ، لكنها من الماضي قطعة مجمدة لا تقبل الذوبان .

عمرت ، وعمر زوجها معها .

اما هو فقد مرض في أعوامه الأخيرة يوم بقيت لها همة الشباب ونضارة الفتوة وشيء من عقل المفكرين . . .

كانوا يقولون في الحي انها تحبه كثيراً ، وتضحي في تأمين راحته كثيراً . . . فهي في خدمته ، في خدمة شيخوخته لولب دائم لا يهدأ لها هادىء ، لا تغمض لها عين ، لا تتعب لها قدم . هي مثله عجوز ، لكنها جعلت من كهولتها قوة وعزماً وتضحية .

اذا نادى بها لبّت كأنها شقة منه ، لا تعرف الغياب عنه لحظة كانت مثلاً يضرب لنساء الحي .

فكم قال فلان لزوجه ، كوني كفلانة ، اعملي عملها ، ضحي تضحيتها ، صلي صلاتها . . .

لقد كرهتها نساء الحي لانها علمت الازواج كيف يتمردون على زوجاتهم ، او قل كيف يلومونهن اذا قصّرن بواجب او قعدن عن خدمة او تذمرن . . .

ما اغربها من عجوز تراها فاذا بها تعبة من العمر ، مكدسة تكديساً ، حتى لتخال جسمها شيئاً غريباً عنها تحمله حملاً رغم ثقله وضخامته وسنواته الطويلة ،

وتمشي في منزلها من غرفة الى غرفة ، من ديوان الى ديوان ، كأنها تفتش عن شيء . . .

لم تكن في الواقع تفتش عن شيء ، ولكنها كانت تظهر لنا انها قوية وان في مكنتها ان تنشط الى كل عمل وانها بعد سيدة المنزل الآمرة وانها الزوجة المضحية ، الزوجة التقية المحبة .

كانت تلبس بمهارة هذه الاشياء ، هذه الصفات ، لبساً كما تلبس رداءها .

ويوم مات زوجها وارتفعت الصرخة من منافذ الحي وعلا في المأذنة القريبة صوت الأذان ظنها الناس ستتحطم بعضها على بعض وكيف لا تتحطم ! وقد افلت من يديها رفيق عاشت معه نصف جيل وكانت واياه صفحة واحدة في كتاب واحد ، ولكنها خرجت من الموت اشد نشاطاً من الحياة ، فاذا بها تمنع الناس من القيام بواجبات الموت لتقوم بها وحدها . . .

وتتلاشى الخطوط البارزة ، ويغيّب العجوز حيث يغيّب الناس عادة في تراب المقبرة الشرقية على مفرق الطوق . ويمضي اهل الحي

يتحدثون في بيوتهم عن هذه الارملة العجوز الوفية التي مات زوجها فأقفلت بيتها لا خوفاً من الناس ولكن حفظاً على اسم زوجها كما تقول، ولكي يردد في كل مناسبة وغير مناسبة ان بيت فلان لم يزل مقفلاً من بعد موته...

...ما اخلص زوجه !!؟

ولقبت في الحي بالمرأة التقية التي تحافظ على تقاليد الموت فلم يجتح قلبها النسيان ولا غيرت وفاءها الايام...

ليتك رأيتها قبل موت زوجها وهي في منزلها كلما نادى بها اسرعت في نهوضها وجريها كأنها لم تكن في الثمانين الثقيلة من عمرها وكأن هذا المتراكم من الاعوام الطويلة التي طوتها ساعات قصيرة في خفة الحياة وسرعة تنقلها.

تعطيه كل ما يطلب، لم تمنع عنه شيئاً، لم تعبس في وجهه عبسة، لم تتذمر منه تذمرة.

كان مشلولاً، متعباً، يكاد يشعر انه قطعة مُسْنَدَة من سريره ولكنه كان كثير الايمان، فاذا شرب مصة او تناول لقمة او تحرك، شكر ربه من اعماق قلبه، فشكرت هي ربها من قلبها ايضاً.

وبين الدعاءين بون شاسع فقد كانت ابواب السماء قريبة من عينه... كان ضياء وجه الله في اسارير وجهه. اما هي فقد كانت تحقق في زوايا بالها شجرات الجنة حيث يسقط التفاح في الفم وحيث تنساب افواه الكوثر لتملأ افواه الأباريق.

لم تقبل معونة احد. انها احبت وحدها ان تنال الثواب الكبير.

لقد حرّمت خدمته على غير نفسها لانها احبت ان تحتكر لنفسها نعمة ربها.

ويوم أغمض عينيه بقيت عينها يقظى كأنه لم يحدث شيء. وكأن هذا الذي فقدته كان ذبيحة من الذبائح القديمة التي قدمت ثواباً عن نفسها لنيل الثواب.

يا لها من انانية.

يا لها من صلاة كلها انانية.

لقد ضحت براحتها في سبيله. لم يكن هو الغاية المثلى بل كان سبيلاً ممهداً الى الغاية. لم يكن هو المحجة بل كان طريقاً واسعاً الى المحجة.

وتتجسد نفسها في انانيتها، والأفضل ان نقول تجسدت انانيتها في نفسها. تعطي بسخاء ولكنه عطاء كالحرمان، تجود ولكنه جود شحيح.

كنت اظن فيا مضى، قبل ان اكبر ويكبر معي الناس، ان البشر يضحون في سبيل البشر فاذا بي اراهم في التضحية يجعلون من اخوانهم البشر مطايا للوصول الى الثواب.

اين هي (العابرة) التي تعطي المستعطي دون ان تطلب الثواب لنفسها من العطاء ؟؟

اين هي الشجرة التي تثمر لتطعم الجائعين لا لكي تجعل من نبذ ثمرها اخضراراً في الموسم المقبل ؟؟

اين هي السحابة التي تمطر لتذوب وتفنى لا لتتبخر سحابة جديدة ؟؟

خواطر مرت بي كما تمر الغربية في الغابة الغريبة، وقهقهت عالياً وآمنتُ بأن الناس لا يصنعون الخير حباً بالخير عينه، ولكن رغبة في الثواب الذي هو في ضفاف جنة الخير وان الحارث لا يزرع ارضه حباً بأرضه ولكن رغبة في الثمار الشهية التي يصنعها التراب في ارضه، وان جدتي لم تخدم جدي حباً به بل حباً بالنعمة التي تمنت ان تمسح بها السماء جبينها الحالمة.

ولا بأس ان اقول ان الناس يقدمون القرابين ولا يقيمون الهيا كل الضخمة الا حباً بما يملك ربهم من نعم الجنة وطيب المياه.

قلت لجدتي: لماذا تحافظين بعد اعوام على ذكرى جدي كل هذه المحافظة... ما أشد اخلاصك له !... ما اقوى حبك !...

فابتسمت جدتي العجوز وفكرت قليلاً والتفتت الي بمقلتيها البعيدتين ثم اشارت الى موقد النار امامها وقالت:

بنيتي، ان الناس للناس وقيد كهذا الوقيد يحترق ويلتهب ثم يرمّد ليتدفأ الناس. وابتسمتُ ملياً لاني كنت اظن الحياة غير هذا الذي رأيت بين موقد الموت وموقد النار، بين هذين الموكبين.

هنيئاً لأخوتي الصغار الذين لم يولد لهم فكرهم بعد...

هنيئاً لهم لأنهم يعيشون بقلوبهم، ان القلب وحده يعلمنا كيف نحب الناس اما الفكر فهو اداة تعلمنا كيف نجعل من الناس مطية لمحبة انفسنا، لتقديس الانانية في ضميرنا.

كان جدي رجلاً عجوزاً، مؤمناً، يعيش بقلبه وحده...

وكانت جدتي امرأة عجوزاً تعيش بفكرها، بشيء من فكرها لذلك صلى جدي فصدق في صلاته ووعى ربه في نبرات صوته، في ضميره،

وصلت جدتي فشطت في صلاتها لأنها وعت جنة ربها في صلاتها.

كانت الصلاة عند جدي ضوءاً عميقاً.

وكانت الصلاة عند جدتي بستاناً وافياء وفاكهة.

دمشق

سميرة حموي

عبيد

بقلم الدكتور نقولا فياض
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

●

ذكرت في حديث سابق بعض حالات العبودية التي يرسف في اغلالها ابن المجتمع ، وها أنذا اليوم اواصل حديثي فأتكلم عن حالة اخرى من العبودية هي اشنع الحالات ، وابعدها أثراً في تبديد القوى ، وتشتيت الذهن ، وإخماد الهمم ، وهي عبودية الانسان لذاته .

انك لا تجد في هذه العبودية طمعاً ولا شهوة ، ولا تشبهاً او تقليداً ، ولا شيء مما سبق فشرحته لك ، بل بالعكس فقد تعرى الانسان فيها من كل أمل ، وغاب عن آفاق نفسه كل حلم ، وانطفأ في اعماق فؤاده كل جذوة ، فاذا ما كشفنا عنه لم نجد الا رماداً بارداً ، وعزماً هامداً .

ألم يسمع الواحد منا غير مرة هذه الكلمة الصادرة عن قلب محروق وفكر مغلوب على امره : هكذا خلقت ? اي خذني كما انا ، او دعني وشأني ، فقد تنازلت عن مقارعة ما بي من الأخطاء والعيوب ، والقيت سلاح المجاهد ، فلا قبل لي باداء واجب عليّ او تحصيل حق لي . لقد قدمت استقالتي الى نفسي ، واستعفيت من العمل ضميري . هكذا خلقت .

عندما تسمع هذه الكلمة من رجل فقل السلام والرحمة على قائلها ، فقد اصبح كالقارب الشريد في عرض البحر ، تتقاذفه الامواج وتعصف به الرياح . مثل هذا الرجل يتوهم انه باعترافه الصريح بالعجز قد وجد عذراً يطمئن اليه ويتستر به للتنصل من التبعات الملقاة على عاتقه في هذا الوجود . ماذا تريدون مني ? هكذا خلقت .

أتلومني يا صاح اذا لم اقم بالواجب عليّ فها أنذا اعترف بقصوري تقول اني باستسلامي الى اليأس والقنوط وتراخي العزيمة اطرد الهناءة من قلبي وابعد السعادة عن حياتي ، انا على اتفاق معك في ذلك ، ولكن هكذا خلقت .

لقد اسمعت لو ناديت حياً .

كثير من الناس من يقول هذا القول وكثير منهم من يقول غير ذلك : انا اليوم في حالة لا تسمح لي بالاقدام على عمل ما ، ففكري في شرود وهمتي في برود . ولا تكلف نفس فوق طاقتها .

قد يجيء يوم اكون فيه اكثر استعداداً وأمضى جهاداً ، اما اليوم فدعني وسبيلي . ما القول ، ما الفعل ، ما التدبير ، ما العمل؟ أيمكن الحزين ان يكون مسروراً ، والضعيف نشيطاً ، وضيّق الصدر منشرحاً ، وسيء الخلق لطيفاً ?

فلان يحب التقوى اما انا فلا اميل اليها ، لكلٍّ مزاجه .

فلان يعطف على الفقير ويكثر من عيادة المرضى ، هذا لا يشوقني ، لكل مزاجه .

من الناس من خلق للحياة العائلية ، اما انا فأضجر من البيت ، لكل مزاجه .

من الناس من يحب التدخل في الشؤون العمومية فليهنأ بها ، لكل مزاجه .

افكاري غير افكارك ، وعاداتي لا تشبه عاداتك ، واميالي لا تتفق مع اميالك . ترحم علي ما شئت ولكن لا تلزمني ان اكون مثلك . في الارض متسع لكل الطبائع ، الصالحة والطالحة للاخلاص ولحب الذات ، للعفة وللظلم ، للكرم وللبخل ، فلا تلزم طبيعة الواحد ما لا يلائم الا طبيعة الآخر .

هذي سبيلي ، وهذا ، فاعلمي ، خلقي
فارضي به او فكوني بعض من غضبا

يجب ايها القارىء ان لا تخلط بين هذه الحالات النفسانية والاميال الناتجة عن الذوق ، فان الذوق لا جدال فيه كما يقول المثل . فمن الناس من يحب الموسيقى ويقدمها على سائر الفنون الجميلة ، ومنهم من يحب الرسم ومنهم من يحب الشعر . كما ان من الناس من يهوى السباحة او الرقص او الصيد او ركوب الخيل او المصارعة . هذا يؤثر اكل النبات وذاك لا يستطيب غير اللحوم ، وآخر يعشق المدام وسواه لا يعرف غير الماء القراح ، رجل يلبس المسوح ويجد اللذة في حرمان نفسه كل لذة ورجل يتأنق في اتباعه آخر الازياء ويضرب في كل ناحية من نواحي الحياة الفائرة الثائرة تلك امور لا دخل لها في موضوعي ومعاذ الله ان اطمع في ايجاد قالب واحد يُفرغ فيه كل البشر :

انما نحن في اختلاف عقول   مثلما نحن في اختلاف وجوه

والفرق عظيم بين من يقول : اني افضل الشعر على الرياضة ، أو الحساب على الغناء ، والتصوير على التحبير ، ومن يقول لا هذا ولا ذاك فلا شيء يغريني بعد الآن . فالارادة موجودة عند الاول مفقودة عند الثاني ، ومن اضاع ارادته فقد اضاع حريته .

ولا تنحصر عبودية الانسان لذاته في هذه الدائرة ، بل هناك نواحٍ كثيرة من الحياة يفقد فيها الاشراف على نفسه . ويتساهل في الرضوخ لاحكام الضرورات فتضيق به آفاق العيش على رحبها دون ان يجرب الخروج من هذا المأزق والافلات من الاسر .

من الشعراء واهل الفن مثلاً من يتهاونون في الانتاج منتظرين ابداً ان تدق ساعتهم ، ساعة الوعي الموعودين بها فيمضي عمرهم في الانتظار . وكلما سألتهم ان ينفضوا عنهم غبار الخمول اجابوك ان الأوان لم يحن بعد لان الالهام هو الذي ينبّه القريحة لا القريحة الالهام . وينسى هؤلاء فعل العادة والتمرين وان الارادة يجب ان تُروّض كما يروّض المصارع عضلاته . وكثيراً ما يهم الانسان بالعمل العقلي وهو لا يعرف مدى استطاعته في تلك الساعة ، ولا ما يمكن ان يقوم به ، ولكن الاصرار والثبات يزيلان الصعوبات من حوله شيئاً فشيئاً فاذا بالمعاني تنساق اليه انسياقاً والالفاظ طوع الزمام .

ومن المتزوجين من يقسون على نسائهم ويعرفون ذلك فاذا ارادوا الاصلاح قالوا اليوم خمر وغداً امر فلننتظر الغد لنكون اقل خشونة واكثر عدلا واوسع صدراً . ويا طول شوق المستهام الى غد .

ومن الشبان من يندفعون في غمار الطيش والاسراف والمعاصي واذا قيل لهم في ذلك اجابوا دعونا نتمتع اليوم وغداً نعود الى الاعتدال والحكمة .

وكم من الذين تمر غمامة سوداء في سماء نفوسهم فينقطعون من اجلها عن كل عمل منتظرين صحو السماء ، وقد تطول الغمامة السوداء .

انا لا انكر ان كل واحد منا تمر به ساعات يكون فيه عبداً لمزاجه فيقول هكذا انا وهكذا أبقى مردداً قول الشاعر :

ومكلف الايام ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

ولكن لكل شيء حد ، وليس الانسان في حاجة لأن يجس نبضه المعنوي كل دقيقة ليتحقق من صحته الروحية وكفاءته للعمل . وما المزاج الذي يلجأون اليه سوى عذر الجبناء للتخلص من التبعات . ومهما يُقل عن الصحة والمرض والوراثة ، وعن افراز الغدد الداخلية وتحكمها في الطباع فالانسان ليس بآلة صماء لا تفكير عنده ولا تدبير . واذا قلت في صدر هذا الحديث ان حرية الانسان غير مطلقة فلا اعني انه بائر الحرية وبائر الارادة . وقول سبينوزا « ليس الانسان في هذا الوجود بمملكة داخل مملكة » يصدق عليه اي الانسان من حيث خضوعه للشرائع الطبيعية والفسيولوجية ولا يصدق عليه من حيث حريته الادبية وارادته بدليل انه كان ولم يزل يستنجد قوته وذكائه وصناعته في كل مكان ليستخدمها سلاحاً ووسيلة للتخفيف وطأة الوجود ورفع اذى العناصر المسيطرة عليه . وهكذا استطاع ان يقيّد الصاعقة ويبعد اخطارها، ويقيم سدوداً للانهر عند فيضانها . والموت نفسه ، وان لم يقوَ عليه واظنه لن يقوى عليه ابداً، فقد خفف من صولته بما بنى من القواعد الصحية حفظاً للحياة ووقاية المجتمع .

يتبيّن لنا مما مر ان كل هذه العبوديات التي اتيت على ذكرها ولا سيما عبودية الانسان لذاته امور يمكن التخلص من ربقتها على شرط ان نريد . الارادة هي محل ارخميدس القائل : « اعطوني نقطة ارتكاز استند اليها فأرفع العالم » .

واذا اردت ايها القارىء ان تعرف ما هي هذه النقطة التي تستند اليها الارادة لترفع عن كاهل الانسان اثقال العادات والتقاليد والضعف البشري قلت لك هي صخرة التربية . التربية لا كما هي الآن وكما يتمشى عليها الآباء والمعلمون بل كما يجب ان تكون وهذا موضوع مقالنا الآتي .

نقولا فياض

المشادة بين العقاد وفروخ

حقوق المناقشة

بقلم عبد الحكيم مراد

محكمة القارىء

☆

في الاساس

١) — قال الاستاذ العقاد في كتابه « ابن الرومي » :

« ان عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية على اعتبار انها موروثة عن آبائه اليونان »

قال الاستاذ العقاد ذلك في الواقع او في زعم الدكتور فروخ، قال ذلك باحثاً او جازماً او راوياً او موسعاً ، ام لم يقل.

— هذا ما صار اليه وجه الخصومة في الأساس . . وهو من الشكل ، وكان يجب ان يكون وان يستمر : هل عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية ؟

هذه هي الخصومة في الاساس ، وكان يجب ان تمضي بوجهها هذا وحده او بوجهيها ، اضطراراً للشكل.

وهي، كما يرى كل عاقل، خصومة مشروعة مقبولة محببة . هي :

— مسألة ما اذا كانت عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية

— مسألة ما اذا كان الاستاذ العقاد صاحب هذا الرأي ابوة او تبنياً ، او استصحاباً بالمعالجة ، او غير ذلك.

٢) — ينفي الدكتور فروخ :

— بشكل قاطع ، « لا جدال فيه » ويحيلك بقوله (راجع ابحاثاً قيمة للاستاذ ساطع الحصري) ، وعلى حساب العلم، وحيث تنصف العروبة في زعمه، في دراسته عام ١٩٤٢ ، ان تكون عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية .

— بشكل آخر جديد حين قال رداً على العقاد :

« لقد غفل العقاد مرة اخرى عن سير التاريخ وعن تبدل الاحوال والازمان وكأني به لم يقرأ مقدمة ابن خلدون . . ان العقاد يرى اثر البيئة الاغريقية في شعر ابن الرومي، يعني انه قد حمل خصائص قوم الى شاعر عاش بعدهم بنحو اثني عشر قرناً . وفي امة تخالفهم في كل شيء . . ولا ريب في ان بعض العناصر الثقافية الاغريقية قد وجدت في البيئة الاسلامية يومذاك — ولكن هذه لا تخلق عبقرية تامة غريبة كما توهم العقاد، مقطوعة السلسلة بحاضرها ملتصقة بماضيها فقط . »

في الشكل

١) — قال الدكتور فروخ في « دراسته الصغيرة » الصادرة عام ١٩٤٢ :

« في ايامنا نفر متأدبون كلما رأوا في الادب العربي حسنة بارعة نسبوها الى بقية غير عربية وتحملوا لذلك الاعذار وتعلقوا بالاوهام ، ومن ذلك انهم وقفوا امام شاعرية عجيبة لابن الرومي فاحبوا ان يروا مصدرها في اليونان لا في العرب : قال سليمان البستاني : « وكأني بابن الرومي الخ » وقرأ عباس محمود العقاد هذا فبنى عليه فصلاً تاماً الخ . . ، وكذلك رأى بطرس البستاني ان يقول محتاطاً « ولعل اصله الاعجمي الخ . . » اما الاستاذ المقدسي فلا يرى ذلك . . لقد غفل البستانيان والعقاد عن طبيعة الاجتماع وفاتها كثير من حقائق التاريخ وأسس الادب الخ . . ان بعض المتأدبين عندنا تأخذهم حمية الانشاء . فيندفعون في كتابة خيالية من غير تفكير الخ . »

هذا هو الشكل الذي لبسته الخصومة الفكرية عند الدكتور فروخ ، لقد استدعى الخصومة الشكلية واقترح سلاحها، والقى بالخصومة الاساسية الفكرية في

الوثائق الثبوتية

— فقرات من كتاب « ابن الرومي» للاستاذ العقاد.

— فقرات من رسالة الدكتور فروخ في «ابن الرومي» ١٩٤٢ ، تناول فيها رأياً للبستانيين (سليمان وبطرس) والعقاد في « ابن الرومي » .

— فقرات من رد الاستاذ العقاد على الدكتور فروخ في «مجلة الرسالة» (السنة ١٤، العدد، ٦٨١، ٢٢تموز ٩٤٦)

— رد الدكتور فروخ على الاستاذ العقاد في مجلة « الاديب » (جزء ١٠ ، سنة ٥ ، تشرين اول ١٩٤٦)

وهدة الفرعية ، إذ غلّب عليها، ابتداء ، الخصومة المستجدة بخروجه الى الاشخاص والصفات . .

— فقوله : « في ايامنا » يعبر عن مبلغ السوء الممتد، في نظره، الى ايامنا ، والذي انفردت به دون سواها على الزمان . .

— وقوله في النهاية : « ان بعض المتأدبين عندنا . . » حين لم يرد بين البداية والنهاية من كلامه سوى اسماء البستانيين والعقاد والمقدسي وساطع الحصري ، واذ هو اخرج الاخيرين من اساس الخصومة واعتبرهما حليفين — لم يبق ، بالضرورة ، الا البستانيان والعقاد .

— هذان القولان من شأنهما اولاً ان يجعلا « التأدب » منصباً على الثلاثة دون ريب . . وبالاختصاص او بالمشاركة مع سواد المتأدبين ، وكلاهما انكى من الآخر ، وبالتالي ان يجعلا مبلغ السوء الممتد الى « ايامنا » بسبب من هؤلاء ، مبلغاً محزناً حقاً . فلو اطلعنا من منظار الدكتور على البستانيين والعقاد لهتفنا : يالله . أية ايام شهيدة ، يخبّ في عرضها مثل هؤلاء . . اللهم امح بلطفك ما قدرت !!

— وقوله : « كلما رأوا . . » اكثر من القول بأن ثمة مؤسسة أجنبية اقيمت عمداً لتجريد العرب من عبقرياتهم وردها الى اصول غريبة ، وما العقاد الا واحد من عملاء هذه المؤسسة ، يقبض جعله دائباً . .

— وقوله : « ومن ذلك انهم وقفوا أمام شاعرية عجيبة الخ . . »

— وقوله : « وقرأ عباس العقاد فبنى الخ . . »

— وقوله : « لقد غفل البستانيان والعقاد . . »

إبراز للهوس على العروبة ، وجزم بالانتحال ، وزعم بوقوع الثلاثة في شرك من الجهالة والغفلة لا يستعدى عليه ، ونسي الدكتور انه لا يستطيع ، بالمنطق ، الجمع بين القصد الى تجريد العروبة من عبقرياتها وبين الجهالة والغفلة . .

— وقوله : « ان بعض المتأدبين الخ » ألم يكن خيراً منه لو قال « الكتاب والادباء » ألم يخرج الدكتور بهذا من التحقيق العلمي الى الانشاء والهجاء ؟ ومع الخصومة ، ألم يقتعد منصب القضاء ؟!

٢) — وكتب الاستاذ العقاد رده فقال :

« وأغرب من السيد عبد الغني حسن في تصحيحاته وتهويلاته سيد آخر من بيروت يدعى (عمر فروخ) ولعله من اصحاب العلم والادب بالرخص الاميركية او الفرنسية التي ابتلي بها الشرق العربي في الزمن الاخير . . وصلت الينا لهذا الفروخ رسالة . . . ثم تناول هذا الفروخ قلمه الاحمر . . . ثم رفع هذا الغر مقرعة المعلم على رؤوسنا . . . هذا الفروخ الجهول معلمنا نحن المتأدبين .

وهكذا افترى علينا ذلك الفروخ بما شئت لاسمه من تقديم او تأخير في الحروف . . . فماذا يقال لمثل هذا ؟ . . ذلك خليق ان ينخع نخعاً . . . ويقال له بحق ان العقاد يا هذا ليتواضع غاية التواضع حين يسمح لأساتذتك . . . »

اما الاستاذ العقاد فقد زحم الدنيا كلها في ردّه . . حتى لكأني به يشتم الفروخ والخزوف بالدكتور عمر ويصمها به . . ينكّر الدكتور ليعرفه بعلمية اخرى (الفروخ) ويحتقر الشهادات « الرخص » حتى بالتسمية فضلاً عن الحيازة والحائزين . . ويستجهل الدكتور بالمبالغة المعرفة « الجهول » ويربّعه ويبختره . . ويؤهله لان ينخع ، بمطلق المفعولية « نخعاً » ولان يضرب على رأسه بالعصا . . ويهين من ورائه ، من اجله ، الجامعات والاساتيذ والعصر . . ويرتقي بنفسه الى السماء ، فلا يطال تواضعه هؤلاء ان سمح لهم ان يجلسوا بين يديه . . . وأخيراً ، فهو من هذه العليين يحكم بالعدمية الادبية والصفر المطلق على الدكتور : « لا من الادباء ولا من المتأدبين . . »

٣) — جزم الدكتور فروخ في رسالته واصراره في ردّه

— حيث يكون في رسالته قد اتهم الاستاذ العقاد .

— بالتبني او الاستعارة اللئيمة او السرقة الحصيفة .

— وبجهل مدى الوراثة العرقية . جهالة خاصة .

— وحيث يكون في رده واحتكامه :

— قد حاول ان يثبت ان الاستاذ العقاد قال برأي معين محدد

— وقد زعم ان الاستاذ العقاد يتملص وينسلّ من رأي مسروق بعد ان ظهر له فساده من اطلاعه البعديّ على ما كتبه هو في رسالته . .

— وحيث يكون في مطلع رده

— سمّى ما كتبه في رسالته عن العقاد « نقداً » . . وفي هذا « النقد » :

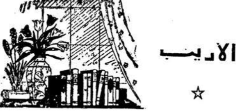
— إما رجوع عن حكاية « التأدب » وهذا ضعيف الاحتمال .

— وإما اصرار ، في قالب من نفي « الادب » لا « التأدب » . باطن من قوله : « . . بما لا يجوز لاديب ان يسم به نفسه لانه حينئذ يصمها به . »

— وإما استعاضة بالسمة والوصمة . . اذا قرر الاستاذ العقاد لنفسه انه اديب . . . وكل هذا ، كما يرى كل عاقل ، حصار مؤيد . لا ثغرة للاستاذ العقاد في سوره . . لان الحكم على شخصيته الادبية والعلمية ، اصبح — تحت ضغط هذا الحصار — رهناً بسلوكية حاصلة واقعة .

— برغم انه ترك الحكم « للقارىء وحده »

— نعت الاستاذ العقاد بأنه سباب شتام .

الأديب

☆

— لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير)

— تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة لبنانية

في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحدّ اعلى

في الخارج : ١٤ جنيهاً مصرياً او استرلينياً او ٦٠ دولاراً كحد أعلى

☆

— المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

●

— للاعلان يراجع المدير الفني : مختار شملي

○

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير اديب

☆

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت — لبنان

— ويجنح الاستاذ العقاد على اساس من السرقة ، ويشحن كتابه بالخطأ .

— ويحكم لنفسه بقوله : « .. فانا الذي ربحت المعركة » كأن ربحها هو كل همه ، هذه « المعركة » التي بدأها وعيّن ساحتها ومماها ...

— وحيث يكون في هذا الرد :

- قد اعتذر بالحرب الاخيرة عن صغر الدراسة ، في غير موضوع اعتذار .

— لانه لا يحتج بهذا في قضية التأليف الذي لا يستعجله شيء .

— لان عبقرية ابن الرومي تستطيع ان تنام سنوات اخرى في انتظار صفتها او انتباهها ،

— لانه ، لا ابن الرومي ولا سواه من البشر او من غيرهم يُدرس في اثنتين وثلاثين صفحة .

— لانه لو أجل الدكتور الدراسة واستوفى الموضوع من الناحية العلمية (في الاساس) لاستغنى مع العقاد عن هذا المآل

— وحوّل ما يغيظ الاستاذ العقاد الى اشياء كان يمكن ان تقال له دون ان تغيظه او تحفظه او تحنقه .

وواضح مما اسلفنا ومما كتبه الاستاذ العقاد نفسه في رده ان الذي غاظه هو ان ينزع عنه — وبتحكم واستبداد من الدكتور فروخ — كل جهاده الادبي .. ليغطى تحت اشتمال كلمة « نفر متأدبين » وان يصنف في صف الذين « تأخذهم حمّية الانشا .. » كأنما هي حمّية الجاهلية ، مع انه في عرض الادب والاسلام ..

— واعتبر الاستاذ العقاد مغالطاً يتجاوز عن ذكر ما يدينه من كتابه الى ما ظن انه يبرئه .. وهو اعتبار قائم على الظن المجرد .

— ونسب الى « اقواله الأخرى » التناقض الذي لا متسع في الوقت لمناقشته »

وهكذا فقد اطلّ عليه من غير كوة .. وغشيه من حيث لا يستطيع الدفاع .

— واصر على « غفلة » العقاد عن « سير التاريخ .. »

— وزعم انه دل العقاد وبرهن له عن « احكامه الجارفة واندفاعه في الانشاء .. » وعلمه ان لا يلقي شيئاً من غير « شعور بتبعة » او « على اساس الاستخفاف بالقراء » ، كأنما يكتسب القراء حلفاء او يستصنعهم او يسوقهم في مساقه كأنما لا رأي لهم ولا اجتهاد ، ناسياً انه كان نصبهم للقضاء .

— وتحدى الاستاذ العقاد مرة اخرى « لحمل النقاش الى غايته » على سنة هو سيدها المتسلط ويجب ان يخضع لها العقاد ..

— وكتب تحت توقيعه رثاء الاستاذ العقاد ورثاء القراء:

« دكتور في الفلسفة »

— وحيث يكون فصل بعض التفصيل قضية الوراثة العرقية على النحو الذي اسلفت اليه محكمة القارىء (في الفقرة ٢ من البند ٢) من الاساس

٤) — موقف الاستاذ العقاد

— حيث يكون الاستاذ العقاد، في رده، قد دفع عنه وعن كتابه، بالاسلوب الذي تقدم بحثه، تعرض الدكتور فروخ.

— وحيث يكون قد اتفق في الاساس مع الدكتور على نفي اليونانية عن عبقرية ابن الرومي نفياً له مفعول رجعي، اي انه تناول بالنفي اللاحق متن كتابه السابق.. او بعبارة اخرى تناول كتابه بتفسير تشريعي كأنما يضعه من جديد بجرية اشتراعية لا تتقيد بسابقة من الحرية قد تخالفها في الروح والنص.

وبذلك يكون قد فرض على كتابه السابق اتباع رده اللاحق وهذا يعني انهما (العقاد وفروخ) متفقان في الاساس اتفاقاً ظرفياً او حاصلاً: اتفاقاً هو في نظر الدكتور لاحق مستجد، وهو في نظر الاستاذ العقاد سابق لم يقطعه الزمن. — فاتفاقهما الاخير:

— يريده الدكتور حاصلاً بسبب من رسالته وتنبيهه، ويعني هذا انه محق في عد العقاد وفي اصراره على عده « متأدباً ذا حمية انشائية.. » كما يعني انه ربح القضية من حيث تصديه.. وانه مظلوم برد العقاد وتلك العقابيل.

— ويريده الاستاذ العقاد سابقاً اي مأخوذاً من متن كتابه، ويعني هذا، فيما يرمي اليه الاستاذان تصدي فروخ تصدٍ قائم على التهجم والافتراء، اي انه، في لغة القانون، تعرض غير محق، فالعقاد اذن هو المحق أولاً، وهو المحق ثانياً في الردع والقمع، لان دفاعه دفاع مشروع ضد تعرض غير محق، وينشأ عن ذلك عنده ان ليس ثمة قضية اقيمت عليه بل مصادرة قطعت طريق انسيابه.

واذن فالخلاف صار شكلياً عندهما، والقضية قضية واقع معارك لا قضية مقاصد معارك..

اما محكمة القارىء فالقضية ما تزال قائمة عندها في الشكل وفي الاساس معاً:

في الاساس

— لأنه لا العقاد ولا فروخ صاحب الكلمة في موضوع الوراثة العرقية برغم القطعية التي ارادها الثاني، وبرغم التفسير ذي المفعول الرجعي الذي أراده الاول — لان صلة اختصاصيهما بالموضوع تظل جزئية في تقدير العلم الراهن.

— لانه لا العقاد ولا فروخ صاحب الكلمة في المؤديات والمفاهيم من كتاب العقاد، لا سيما بعد الخصومة.

— لانه لا هذا ولا ذاك ولا العلم الراهن — الذي فيه كله جدال سيظل الى الأبد — يشترع بقطعية لعبقرية ماضية او حاضرة سبقها التاريخي كثير المجاهيل.

— لان قضية كهذه لا تقوم بمجرد ذاتها — فهي قضية كل المعرفة.

في الشكل

لان الخصومة لم تجرد من الشكل الذي أفرغت فيه، حيث هي ماتت في الاساس، عند المتخاصمين، وبقي الشكل.. وقد استعملت فيه كل الاسلحة المحرمة..

— من قبل الدكتور الذي استعمل المتفجرات.

— ومن قبل الاستاذ العقاد الذي لم يكتف بالمقابلة بالمثل بل استعمل الاسلحة القديمة (المستعملة في مصر في حروبه مع الرافعي وغيره) والحديثة، وهي من مبتكراته في هذه الحرب الاخيرة مع الدكتور.

— ومن قبل الدكتور الذي احب ان يؤلف البداية والنهاية فاعاد في رده نشر ما ورد في رسالته واحتكم الى القارىء احتكاماً ظاهرياً في مطلع رده، رجع عنه الى الحكم لنفسه، وامتد منه الى التحدي وطلب المناجزة

حيث اصبح من الصعب او المتعذر، بلا تسامح، احصاء الاصابات

١) — في الغارة التي شنها الدكتور فروخ بلا مبرر على الاطلاق لانه، بصرف النظر عن كل شيء، وبرد النظر الى كل شيء، ليس في مقام تصنيف العقاد لان التصنيف:

— يجب ان يتناول بالاستقلال في غير انجرار من البحث عن ابن الرومي. — لا قطعية فيه، ولا هو حكم مبرم يوضع في القالب الذي وضعه فيه الدكتور.

— لا محل له في الزمن والعقاد حي يرزق يخشى منه اكثر مما يخشى عليه..

— ينهار حتى عند المصنف بانتقال العقاد، حيث يصبح المصنف اقرب الى العدالة، كما تنهار العقود مع الاحياء بانتقال العاقد بله العقاد.

— غير جائز في العصر كله.. وتلاميذ العقاد احياء وعارفوه.

٢) — في الهجوم المعاكس الذي شنه الاستاذ العقاد، ناسياً انه بلغ مبلغ السماحة والحب والندى، والتواضع والنضج والغيرية، والتجاوز.. وانه مطالب بكل سلوكية اصحاب الصفات المثلى من شذاذ التاريخ..

دمشق — عبد الحكيم مراد

تسامح

☆

أحبكِ لحناً على مسمعي … وحلماً جميلاً على مضجعي
أحبك اغمر فيك الوجود … واغمر حلم الغد المزمع
وأنسى على راحتيك شبابي … وثورة هذا الشباب الدعي
احبكِ فوق الظنون وفوق … الاماني الحسان ، ولا ادّعي
فانتِ سمائي ، وحلم هنائي … وعرسي ، واغنية المرفع
فما مرّ غيركِ في خاطري … وعيني لغيرك لم تدمع
كأنك سرّ الهناء وسرّ … الكآبة في الثغر والمدمع
أراكِ فأكبتُ شوقي حياءً … وقد جنّ شوقي للمطلع
ارى في الطبيعة بعض سناكِ … ونورك في الأنجم الطّلع
ففيك معانٍ من الحسن دلت … على ذوق خالقك المبدع
وحبٍ عرفناه مثل الربيع … انطلاقاً بوجه الربى الممرع
رعيناه بين اندفاع المشوق … وبين انطلاق اللقا المسرع
وكنا اهازيج حبٍ وكنا … شعاعاً على مظلم الاربع
فبدلت عهداً من الصفو حلواً … بعهدٍ تخضب بالادمع
فايقنتُ ان هواكِ سراب … واني وقعت على بلقع
أحبك والشك ملءُ فؤادي … أأقنع والقلب لم يقنع
وبين شكوكي وبين يقيني … صراع وشوقي لم يصرع
مضى الليل الا الهزيع الاخير … ونام الجميع ولم اهجع
اراكِ تمرين في خاطري … فأسبل من دمعيَ الطيع
عزاء المحب على هجره … دموع أسيلت ولم تسمع
زعمت هواي واحببت غيري … فبورك فيك وإن اخدع
طمعتُ بحبٍ عميق المرامي … ولما فشلتُ سما مطمعي

جوزيف مجا

هذه المدنية مصالح لا اخلاق

بقلم نقولا حداد

☆

اناس هذا العصر اليوم ذاهلون لما يقاسونه من القلق والخوف والفوضى العامّة .

العلم تبوّأ الأوج . والاختراع ارتفع الى الذروة . والفلسفة كشفت عن كل ادواء الاجتماع ودلت على طرق العلاج .

البخار طأطأ هامته الى اقدام البشر . الكهرباء سجدت لسلطان ابن آدم . سنّة الجاذبية اذعنت لربوبية الانسان الذي انقصه الله قليلاً عن الملائكة . الطبيعة ذلت لدى ذكاء الجنس البشري ووضعت قواها تحت امره .

صار في وسع الانسان الآدمي الصغير لقاء هذه الطبيعة الجبارة ان يعيش متمتعاً بكل ما في الوجود من متعة من عناء .

فلماذا اذن في المجتمع الانساني استقطاب مترامي القطبين بين الثراء الفاحش والفقر المدقع وبين العلم الناطح حدود الوجود والجهل الفاضح الخارق الحدود : نعيم الهناء وجحيم الشقاء ؟

وعلى مَ هذه الخصومات الجهنمية لبني حواء ؟

يظن جميع الناس ان قادة الناس قد تعلّموا من جرّاء الحربين في جيل واحد دروساً لاسترداد السلام للنـــاس . فاذا الناس كقادة الناس قد قتلوا سلام الناس (والتكرار هنا لتأكيد ان الشر لم يخرج عن كونه من ارادة الناس) .

واذا باتباع المسيح الذين قال ملائكته عند ميلاده . . . وعلى الارض السلام . . .

كانوا اسرع الامم الى الخصام والحسام :

انباع عيسى ويحهم قد جرّحو
ه كل يوم الف جرح دام
طبعوا سلاح الحرب من صلبانه
واستبدلوا تحنانــه بسهـام
باعوا محبتــه بمحض عدائهم
واستقبلوا الغفران بالاجرام
جعلوا كنائسه مرابط خيلهم
فانداست الاقداس بالاقدام
تالله ما نكل اليهود به كما
نكل الطغاة بابريا الاخصام

قال فلاسفة الاجتماع — وقد صار الناس كلهم فلاسفة اجتماع — العالم ارتقى علمياً الى القمة في الارتفاع . ولكنهم تدهوروا في ادب النفس الى ما دون الرمس .

العالم ارتقى علمياً وانحط روحياً .

اذن فما نفع فلسفة الاجتماع وفقه الاشتراع ؟

قال الكهنوتيون : ان شيطان العدوان طغى على ملكوت الانسان . وقال الفقهاء اللاهوتيون : ان ابليس الشر طغى على قلوب البشر ، لان الانسان ضلّ عن الله وتقرب الى الشيطان .

حقاً ان الانسان كل عمره شر من الشيطان . ومنذ عهد قايين الى اليوم ندر ان عصم نفسه عن الشر . فهو شرير شرير . وما اقترب الى الله الا لعلة او لعلل .

فما الذي كان يعصم الانسان احياناً عن الغدر باخيه الانسان ؟ — لم يعصمه خوف الله بل حبه لنفسه . هذه نقطة البحث .

نعود الى عصر الانســـان القديم — الآدم الاول . ولنرَ ماذا كان يكبح ذلك الآدم عن الشر .

منذ القديم كان الآدم الأقوى الشديد يتسلط على اخيه الآدم الضعيف البليد ، حتى اذا قام له من بين الاوادم آدم آخر ينازعه هذا السلطان قتله لكي يخلص من نزاعه . ولكنه ما لبث ان اصطدم بآدم آخر اقوى منه فخاف منه وتنازل له عن السلطان لئلا يقتله كما قتل هو ذلك الآخر ويأخذ السلطان منه عنوة . ثم ظهر آدم رابع اقوى فخاف هذا وذاك ان يقتلهما ويغتصب السلطان لنفسه فتفاوض الاقوياء الثلاثة او جميع المؤانسين من انفسهم القوة في تسوية النزاع بينهم واتفقوا على ان يكفوا عن التنازع ويعقدوا الخناصر على التعاون والا افنى بعضهم بعضاً في القتال . فاتفقوا على حدود الارزاق بينهم وعلى احترام الحقوق فاحترموها على قدر ما بينهم من توازن في القوى والشدائد . واتفقوا على عهود بينهم لا ينكثونها والا انتقمت الجماعة من ناكث العهد .

على هذا النحو استطاعت العشائر والقبائل القديمة ان يتقي بعضها شر بعض الى حدّ ما . وهكذا كان مبدأ التشريع والتقنين .

تعاقدوا على احترام بعضهم حقوق بعض لان كل فرد قوي او ضعيف رأى ان احترامه لحق غيره انما هو ايجاب لغيره ان يحترم حقه لئلا يقتتلا وان محافظته على القانون تأول الى حماية القانون له ، فهو بخضوعه للشريعة يضمن السلامة لنفسه .

وكما تعوّد الناس المحافظة على الحقوق والقوانين صار احترام القانون فيهم عادة والعادة خامس طبيعة، كما كانوا يقولون، اي شبه سليقة .. فمن لم يطع الشريعة قالوا عنه انه شرير اثيم يشذ عن الصراط المستقيم ومصيره في هذه الدنيا العقاب وفي الآخرة السعير وبئس المصير .

ترى مما تقدم ان الناس لم يتقوا الله تحامياً للعقاب وابتغاء للثواب بل اتقوا شرائعهم لحماية مصالحهم من الدمار والخراب . لم يستقيموا عن تقوى بل عن حب ذات وعن حرص على المصلحة الشخصية . فالصادق لم يصدق لانه خشي العقوبة على الكذب بل لكي يكتسب ثقة قومه ، ويعاملوه ويؤمنوه على مصالحهم كما استأمنهم هو على مصالحه . فنفع هذه التقوى متبادل . والانسان اتقى وعفّ وصدق وتنزه حرصاً على منفعته الشخصية لا حباً بالعفة والنزاهة، يتنزه ليس لانه نزيه بالفطرة او الغريزة بل لكي يضمن هو نفسه السلامة .

فما نسميه اخلاقاً وآداباً انما هو اداة لحفظ البقاء . وما نسميه قانوناً او شريعة انما هو عن مخترعات هذه الاداة . فالشريعة لم تهذب الانسان بل الانسان هذب الشريعة مرغماً حرصاً على بقائه والحرص على البقاء هذّب الانسان رغم انفه . ولكنه لم يصن مطامعه ولا لطفها ولا كبح جماحها . فبقي الشر كامناً متربصاً للخير .

لا ريب في ان تعود الناس على التخلق بالاخلاق الشريفة الطيبة صار على التمادي شيمة في اقلية البشر . فيأتون الصلاح عفواً من غير تعمل . وهذه الشيمة هي ما نسميه الضمير . والضمائر تفاوت في الصلاح والطيبة بيد انها قليلة في البشر . وسوء حظ اصحاب الضمائر الصالحة ان اشرار البشر يستغلون هذه الطيبة . ومن هنا منشأ الخصام بين الانام على رغم ما لهم من روادع وقضاة ومحاكم وحكام .

***

هذا هو الشأن بين افراد الناس بعد مرور الدهور عليهم منذ فتح آدم الاول عينيه وصار يفهم الخير والشر . والى الآن لم يستطيعوا ان يمحقوا الشر من بينهم ويكتفوا بالخير .

فما بالك اذن بالشعوب والامم وهي مجموعات من اقلية افراد ذوي ضمائر واكثرية افراد بلا ضمائر . وهي محتكة بعضها ببعض بحكم اتساع دوائر الاتصال فيما بينها وتقاطع هذه الدوائر أفلا تتصادم هذه الامم وتثور فيها شهواتها ؟

يلوح لي وانا المفكر البسيط ان جماعات الامم اليوم هي كافراد البشر لعهد الآدميين الاولين . اي لم تزل في همجيتها ولما تبلغ بعد الى بدء حضارتها الاجتماعية . لا تزال الامة القوية فيها تفترس الضعيفة بحكم الشهوة الوحشية كما كان الاعجمي القديم يفترس جاره .

لم تبلغ الجماعات الى درجة الانسانية بعد بل لم تزل في درجة الهمجية او الحيوانية تقتل وتنكل كالضواري . لم تعرف حتى الآن كيف تتفق حتى لا يفترس بعضها بعضاً . ما هي الا ضوار انيابها الغواصات والطيارات والقنابل الثقيلة والصاروخية الخ . وجرس العقل فيها هو القنبلة الذرية (بعيد الشبه)

افلا يمكنها ان تتلافى فناءها بالاتفاق على شريعة تحرص بها على بقائها كما فعل الاوادم الاولون، وان تحترم اتفاقاتها حرصاً على سلامها وضمانة سلامتها كما فعل أولئك . لم يكن للاوادم الاولين سيد أعلى يضطرهم الى الاتفاق والاشتراع . لم يكن لهم سيد سوى المصلحة والاشتراك في المنفعة . اليست الآن الامم احوج الى الاتفاق من الانسان الاول حرصاً على نفعها وبقائها .

الانسان الاول تعود احترام القوانين فصارت عادة احترامه لها ضميراً فيه . وهذه الامم لا تستطيع ان تقر السلام بينها الا اذا جعلت الانسانية ضميراً فيها والسلام العام خلقاً لها .

فهذا الرقي العلمي او الاختراعي لا قيمة له ما دامت الامم وحوشاً ضارية . وما هذا الرقي الا الخطوة الاولى في الانسانية كما ان ارتقاء آدم القديم في انتصاب القامة والتفاهم بالكلام الخطوة الاولى في ارتقائه من الوحشية الى الانسانية .

وما هذا العقل النابغ في المعرفة والرقي في الاختراع الا ارتقاء في الضراوة .

اما حان للمجتمع البشري ان يصنع له عقلاً اجتماعياً يعقل ويشترع لنفسه شريعة تعصمه من التفاني في القتال واغتصاب الحقوق .

لا تزال هذه الهيأة الاجتماعية طفلة لا تعرف مصلحتها . تطرح نفسها في النار والبحر ومن الجو من غير وعي ولا وجدان فاين العقل الفردي ينهي الآن لكي يستنبط عقلاً اجتماعياً يحسن التدبير لمصلحة الجماعة .

للافراد بعض اخلاق ولكن الجماعات بلا اخلاق . وللافراد بعض ضمائر ولكن الجماعات بلا ضمائر . فاذا لم تتخلق الامم بالاخلاق الصالحة ولم تتخذ لها من الانسانية ضميراً صالحاً فانذرها بشقاء لا يطول حتى ينتهي بالفناء .

اللهمّ ألهم هذا الجنس البشري ان يفهم مصلحته حتى يحرص عليها بشريعة دولية عمومية محترمة .

القاهرة — نقولا حداد

بيراموس وثسبي

☆

من اساطير القدماء

☆

ترجمة ماجد فرحان سعيد

القدس



بيراموس Pyramus اجمل شاب اظلته سماء بابل ، وثسبي Thisbe آية من آيات الحسن والبهاء .

وكانا يسكنان مع اسرتيهما في منزلين متجاورين ، فتعرف كل منهما على الآخر واينعت هذه المعرفة حتى نضجت وتحولت الى محبة . وكم كانا يودّان ان يتوجا حبهما بالزواج ، لكنّ ابويهما كانا يقفان دائماً في طريق حبهما الطرير — ذلك الحب الذي ابتدأ بالاشارات وبلغة العيون . غير ان شيئاً واحداً لم يقو الأبوان على منعه ، وهو توقد جذوة الحب في صدر الحبيبين نتيجة لكبت عواطفهما .

وكان في الجدار الفاصل بين غرفتيهما شق طفيف ، لم يلاحظه احد من قبل ، غير ان المحبين اكتشفاه ، واي شيء لا يكتشفه الحب ؟! فساعدت هذه الثلمة على نقل الصوت ، فتبودلت حينئذٍ الرسائل الودية الرقيقة . ولطالما وقف بيراموس من جهته ، وثسبي من جهتها ، وامتزجت انفاسهما ، وتفوّها بهذه الكلمات : « يا ايها الجدار الذي لا يحركه شعور ولا رحمة ، لمَ تفصل بيننا ؟ اترانا ننكر جميلك ؟ كلا والف كلا !! بل اننا لنعترف بالمعروف الذي اسديته الينا اذ كنت الواسطة في نقل همسات قلبينا » . وعندما كان الليل يسدل حجابه المظلم الكثيف ويحين وقت الوداع كان كل منهما يضغط بشفتيه على الجدار ، فتنبعث حينئذٍ وسوسات القبل من الثغور المتلظية .

وفي الصباح التالي عندما اطفأت اورورا Aurora (آلهة الفجر) النجوم ، واذابت الشمس الجليد الذي كسا العشب السندسيّ الاخضر ، التقى العاشقان في بقعة معينة . وبعد ان ندبا سوء حظهما اتفقا على ان يغادرا مسكنيهما في هدوء الليل البهيم والصمت المخيم باجنحته على الكون ، وان يذهبا للحقول حيث يتساقيان الهوى بجانب ضريح نينوس Ninus تحت شجرة التوت الابيض فافترقا ، وعند العصر اخذا يرتقبان بشوق زائد جنوح الشمس للاصيل وانتشار الظلام الدامس . وفي المساء ، غطت ثسبي رأسها بحجاب وانسلت من البيت بحذر دون ان يعرف اهلها عن ذلك شيئاً ، وتوجهت نحو الضريح ، وجلست تحت الشجرة . وبينما هي جالسة هنالك ، في ضوء القمر الباهت ، عاينت لبوءة ، وشمت الروائح الكريهة التي اخذت تنبعث من فمها لشدة بطشها بفرائسها . وكانت اللبوءة متوجهة نحو النبع كي تطفىء ظمأها من سلسبيل مائه .

وعندما رأت ثسبي ذلك المنظر المرعب ، التجأت الى كهف واختبأت فيه ، لكن حجابها سقط على الطريق . وبعد ان شربت اللبوءة ، عادت ادراجها الى الحرج ، وعندما رأت الحجاب مزقته ولطخته بالدماء ، وطرحته على قارعة الطريق .

.. تأخر بيراموس عن الموعد المضروب . ولكنه عندما اقترب من المكان المعين ، لمح على الرمل آثار خطوات اللبوءة ، فامتُقع لونه . وفي تلك اللحظة رأى الحجاب ممزقاً وملطخاً بالدماء ، فاغرورقت عيناه بالدموع وصرخ قائلاً : « لهفي عليك ايتها الفتاة التعسة ! انا سبب موتك ! لقد كنتِ اجدر مني بالحياة ، ولكن ما العمل تجاه صولة الاقدار ! كنتِ الضحية الاولى ، وسأكون الضحية الثانية ! انا ، انا الأثيم الذي اغواك على المجيء الى هذا المكان ، حيث تحدق بك الاخطار والتهلكة ! وانت ايتها السباع الضواري تعالي اليَّ ، ومزّقي جسمي بأنيابك النواهس ! »

ثم تناول الحجاب ، وتوجه به نحو الشجرة ، وهنالك اخذ يغمره بفيض من الدموع والقبل . ثم قال : « سوف يلوثن دمي هذا الحجاب » . واستلّ السيف من غمده ، واغمده في صدره . فتدفق الدم ، وجرى في الارض حتى وصل الى جذور شجرة التوت الابيض فارتفع في الجذع حتى بلغ الاثمار ، فخضبها بلونه الارجواني .

وفي الوقت نفسه ، كانت ثسبي ترتعد فرائصها من شدة الرعب ، فمشت على غير هدى تبحث عن حبيبها بتلهف كي تخبره عن الاخطار التي صادفتها والتي استطاعت ان تنجو من بين براثنها . وعندما وصلت الى الشجرة ، ورأت تغيّر لون الاثمار ، خالجها الشك في ان تلك الشجرة هي الشجرة المعيّنة . وبينما هي غارقة في بحر خضم من الشك ، سمعت حشرجة شخص يعاني نزاع الموت . فجفلت وانصاعت الى الوراء ، وتملكتها رعشة عنيفة سرت في هيكلها الغض كما يسري التموج على اديم الماء الهادىء عند هبوب العاصفة . فتقدمت الى المكان الذي انبعث منه الصوت ، واذا بحبيبها بيراموس ملقى على الارض يتمرغ بالدماء ! فصرخت وولولت وصكت صدرها وعانقت ذلك الجسم الذي لا حول له ولا قوة ، وسكبت الدموع في جروحه وطبعت على شفتيه الباردتين ووجنتيه الاسيلتين أحرّ القبل وصرخت قائلة : « ماذا حدث لك يا بيراموس ؟ أجبني ! انا ثسبي حبيبتك ! اسمعني ايها الحبيب وارفع رأسك الذاوي كيما تنتعش آمالي التي كاد يقضى عليها الآن قضاء مبرماً ! » وعندما نبست بكلمة « ثسبي » ، فتح بيراموس عينيه النسريتين اللامعتين ، واغمضهما بسرعة .

والتفتت بجانبها وألفت حجابها ملطخاً بالدماء ، والسيف مسلولاً من قرابه ومطروحاً بجانب بيراموس . فقالت : « لقد قتلت نفسك من اجلي وكنت المثال الساطع على الشجاعة التي ينبغي عليَّ ان اقتدي بها ، ان حبي لك يعادل حبك لي ، لذلك سوف انتقم من نفسي ! ان الموت الذي استطاع وحده ان يفرق بين روحينا ، لن يحول دون اجتماع جسدينا ! فيا ايها الآباء الاشقياء ، ان لي طلباً فلا تضنوا عليَّ بتحقيقه . اريد ان يجمعني وحبيبي قبر واحد ، كما جمعنا حب واحد وموت واحد ! وأنت ! أنتِ أيتها الشجرة ، احتفظي بعلامات القتل ، ولتبق ثمارك حمراً سحابة الدهر تذكاراً لدمنا المسفوح ! »

وما كادت تنهي كلمتها الاخيرة حتى اغمدت السيف في نحرها ولفظت انفاسها الاخيرة .

اما الأبوان فصادقا على ذلك الطلب ، اذ وضعا ثسبي مع حبيبها في قبر واحد . واما الشجرة فظلّت تؤتي أكلها من الاثمار الارجوانية على كرّ الايام والدهور .

القدس ماجد فرحان سعيد

مـن حيـاة شـاب

بقلم جلال فاروق الشريف

☆

٢٣ – ١٠

النيران تتأجج في المدفأة العالية وتشيع في جو الغرفة الدفء في هذه الايام الباردة ، ورغم هذه الحرارة المنتشرة اشعر برعشة خفيفة تسري في أوصالي هي بقية من برودة تحاول التشبث بهذا الجسد المرتعش الذي بدأ يحس بدبيب الدفء يتسرب اليه طارداً بقايا الرعشة ومتغلغلاً بين الضلوع منتظراً في رقبة وخشية خمود نار المدفأة الذي يضطره الى الفرار فيتركني ارتعش من جديد .

منذ ايام اتيت بمذكراتي هذه ووضعتها الى جانبي في المكتب الذي امارس فيه عملي وهو مقر وظيفتي هذه ، فلا اكاد اختلي بنفسي في هذه الغرفة حتى اتناول هذه المذكرات واخط فيها ما اشعر به واعانيه في لحظة الكتابة . لقد مضت اشهر ولم اخط في مذكراتي هذه شيئاً فالحياة التي عشتها في تلك القرية اثناء وظيفتي السابقة كانت ابعث شيء على الكتابة والتأمل لولا ذلك العمل الكريه – المرهق الذي كنت اقوم به والذي احالها جحيماً لا يطاق وعملاً متواصلاً يرهق النفس ويغلق الفكر ، ففسدت هدأتها العذبة واقلق سكونها الحبيب ، فلم تعد النفس فيها تظل ساجية وحيدة لا يعكرها معكر او يزعجها طارىء كما كانت من قبل ، وانما اصبحت الحياة فيها كلها جهد وارهاق ووتيرة واحدة تظل عليها النفس ، فليس هناك اي تجدد او تنوع وانما هو جهد يبذل دائماً في غير شوق وارهاق يعانى في غير لذة او بهجة ، ولعل حياتي في تلك القرية قد تتنوع قليلا لو اختلف على الأقل نوع الجهد والارهاق اللذين اعانيهما ، ولو لم تتغير كميتها ومقدارهما ، الا ان شيئاً من هذا لم يكن ليحدث .

اما هنا في هذه الوظيفة في المدينة ، فالحياة مملة ايضاً ، لا لأنها تجري على وتيرة واحدة ، وانما لانها لا تجري ابداً . لقد كنت اقاسي في القرية كثرة العمل ، اما هنا فانا اشكو من قلته ، هذه القلة التي يشعر المرء معها بازدراء لنفسه لانه يحس احساساً عميقاً بانه يأخذ مرتباً اكثر من الجهد الذي يبذله ، فيستحي من نفسه ، ويشعر بشيء من هوان غير محبب الى النفس ، بينما هو دائماً في نفسية متعـالية شامخة ، عندما يشعر بانه يبذل اكثر مما ينال ، فيظل في اعتقاد بأنه لا يعمل من اجل الأجر وانما من اجل نفسه ، ومن اجل قيم سامية كامنة فيها ، لذلك فهو يبذل اكثر مما ينال ، ويأخذ اقل مما يستحق .

فانا احاول ان املأ هذا الفراغ بكل شيء محبب او على الاقل ، يذهب بالسأم والانفراد الذي يحسه المرء عندما لا يعمل شيئاً ، ولهذا فقد اتيت بهذه المذكرات الى جانبي احاول بها ان اسري عن نفسي واصفها واخط فيها اشياء تبدو في نفسي غامضة لكنها لا تلبث ان تتوضح وتنصع عندما اقلب وجوهها واكتبها وليس فيها اي لبس او ابهام

٢٩ – ١٠

في هذه اللحظة ، انتهيت من قراءة الرسائل التي بعث بها رينر ماريا ريلكه الى الشاعر الناشيء فرانز كابوس ولو لم يكن اثرها في نفسي عظيما ما تناولت القلم لأكتب في مذكراتي هذه شيئاً مما بي لاني لن اخط الا اعنف الازمات التي تمر بي ولن أشير الا الى تلك اللحظات التي احس فيها ان نفسي مترعة واني مقدم على منعطف خطير في حياتي .

فانا لم ادرك الا الآن حقيقة ما عناه ذلك الصديق الذي اهداني هذا الكتاب ولم اشعر الا الآن بمقدار بعد نظره وتغلغله

. . . وهذه ايضاً صفحات يحاول فيها الشاب ان يعبر عن اخلاصه لنفسه ، وعن الجهد الذي يبذله في سبيلها لتكون كما يريدها بسيطة ساذجة ، بعيدة عن كل زيف وتصنع .

[جلال فاروق الشريف]

في نفسي عندما قال لي وهو يقدم الكتاب: انك مقبل على الكتابة والنشر، وفي هذه الرسائل ما يساعدك الى حد بعيد على ما انت مقبل عليه.

لقد شعر هذا الصديق اني اعاني ازمة وادرك ان رسائل ريلكه الى فرانز كابوس قد تساعدني على حل هذه الأزمة والوصول بي الى الاستقرار النفسي المنشود، الا ان ريلكه نفسه يقول: ان اي انسان ما لن يستطع ان يؤدي اليك النصح او المساعدة، وفي هذا القول المساعدة الكبرى التي يقدمها ريلكه الى الشاعر كابوس.

فانا قبل ان انشر ما اكتب لم يخطر لي ان اسائل نفسي ابداً لمَ اكتب. فمثل هذا السؤال لم يخطر ببالي مطلقاً، ولو لم انشر لما ثار في نفسي، ولظللت اكتب لنفسي، الا ان ذلك الحافز الذي دفعني الى ان ارسل اول ما نشرت، كان المسبب لهذه الازمة التي اعانيها، والتي اظل من جرائها حائراً اتسائل أأتابع النشر ام اتوقف عنه؟

اني لأدرك جيداً اني لم اصل بعد الى المستوى الذي اطمح لان اكون فيه، واني لأعلم جيداً ان طموحي في الثقافة لا يقف عند حد ولا ينتهي الا بانتهائي، وان امامي مراحل طويلة خططتها لنفسي وعقدت العزم على اجتيازها، واني في كل مرة اكتب فيها لأنشر اهم بان امزق ما كتبت، ولقد فعلت ذلك كثيراً، واني لأجرؤ فاقول اني كثيراً ما اكره ما اكتب فانا اقدم على الكتابة باخلاص واندفاع، ولا اكاد انتهي منها حتى القي الورق بعيداً وأفر منه فلا املك ان القي عليه ولو نظرة واحدة، واني لأقسر نفسي كثيراً حتى افعل ذلك مرة، ولا اكاد اودعه الغلاف حتى اشعر ان حملا قد انجاب عن عاتقي.

اني لأكتب مذكراتي هذه لاني احس بهذا الضغط العظيم الذي اعانيه، ضغط الازمة ولا اكاد افرغ شيئاً من هذا الضغط بالكتابة حتى اكره كل ما كتبت اثناء الازمة التي مرت بي ويتولاني الشعور بان ما اقدمت عليه كان في وضع شاذ غير طبيعي وانه يجدر بي ان اعوض عنه، فانا دائماً في صراع مع نفسي وفي ازمات جديدة تبدأ حيث تنتهي الاولى.

يقول ريلكه مخاطباً فرانز كابوس:

— انك تسأل فيما اذا كان شعرك حسناً، وانك لتسألني ذلك، ولقد سألت عن ذلك آخرين، وانك لترسل هذا الشعر الى المجلات، وانك لتقارنه بقصائد اخرى، وانك لتجزع حين تنحي المقارنة جانباً تجاربك الشعرية، ومع ذلك، بما انك سمحت لي بان انصحك، فاني لأرجوك ان تعرض عن كل هذا. ان انظارك قد اتجهت نحو العالم الخارجي، وهذا ما لا يجب عليك ان تفعله الآن. ان اي انسان ما لن يستطيع ان يؤدي اليك النصح او المساعدة، ليس هناك سوى طريق واحد، عد الى نفسك، وفتش عن الحاجة التي تدفعك الى الكتابة، ابحث فيما اذا كانت جذورها قد نبتت في اعماق قلبك، اعترف الى نفسك هل تموت اذا منعت عن الكتابة وخصيصاً اطرح هذا السؤال، أتتساءل في اهدأ لياليك قائلا: هل انا مجبر على الكتابة حقاً؟ نقّب في نفسك عن الرد العميق، اذا كان هذا الرد بالايجاب، واذا كنت تستطيع ان تجابه سؤالا خطيراً كهذا بكلمة قوية وبسيطة هي — انا مجبر — عندها إبن حياتك على هذه الحاجة. ان حياتك حتى في افرغ ساعاتها وفي اشدها لامبالاة، يجب ان تكون دليلا وشاهداً على مثل هذا الضغط.

بمثل هذه القوة يزيد ريلكه في نفسي ضرام الازمة الثائرة فلا اجرؤ على ان اتصدى للاجابة على هذه الاسئلة التي يطرحها، واود لو استطعت ان افر منها، الا اني اعلم جيداً اني اذا استطعت ان افعل ذلك، فانما اغالط نفسي واخدعها، ولكم يحلو للمرء مثل هذا الخداع وهذه المغالطة الا انه لا بد لي من ان اتشجع واجابه هذه الاسئلة. واني لأهم بان اجيب، الا اني لا ازال متردداً فالحقيقة مرة ومن الصعب ان يتجرد المرء لها حتى بينه وبين نفسه، اني كما يقول ريلكه، أسأل الناس رأيهم فيما اكتب، واني لأرسله الى المجلات، واني لأقارنه بغيره من الكتابات، واني لأستاء اذا كانت كتابتي دون غيرها، ولا اقالك من ان اعترف بصراحة في هذه المذكرات بأن انظاري قد اتجهت نحو العالم الخارجي كما يقول ريلكه، وهذا امر لم ادركه الا عندما قاله لي موجهاً خطابه الى فرانز كابوس، واني لأعلم ان فرانز هذا لم يعد شخصاً بعينه، وانما اصبح كل كاتب او شاعر ناشيء. بدأ يحبو فهجر نفسه ليضل بين الآخرين ويعيش على حساب آرائهم فيه.

لست اعلم الطريق الذي كان يمكن ان اسلكه لو لم ينر ريلكه سبيل المشكلة امامي، ولو لم ينبهني الى نفسي، واني لأشعر الآن بتلك اليد التي هي علي لذلك الصديق الذي وضع بين يدي هذه الرسائل.

الا اني لا استطيع الا ان اعود واتساءل قائلا: لقد اتجهت نحو المجتمع والامة في

كتابتي ، ولقد اردت ان اقوم بمحاولة ولو كانت ضئيلة لانير السبيل امام نفسي وامام من يقرأني، فهل اتجهت نحو العالم الخارجي كما يقول ريلكه .

ان في نفسي صراعاً فهل اهجر كل شيء لاسخر نفسي وقلبي للامة فلا اكتب الا لها ولا اعمل الا في سبيلها ، ام اتجه نحو نفسي واندفع معها في الاتجاه الذي تصبو اليه .

ولا املك الا ان اتساءل ايضاً : هل اتجاهي نحو المجتمع مناقض لاتجاهي الحقيقي الذي استطيع ان ابدع فيه . وهل ثمة فرق بين اتجاه المرء نحو المجتمع واتجاهه نحو نفسه؟

لقد قال لي صديق بعد ان قرأ مقالة لي في موضوع قومي، ان الكثيرين يسخرون انفسهم للعمل القومي والتبشير بفكره ولو افسحوا المجال امام انفسهم لتنطلق في اجوائها الخاصة وتحقق ميولها الفنية لاستطاعوا ان يبدعوا ، فهل هذا القول صحيح بالنسبة لي ، واني انحرف بنفسي عن سبيلها الحقيقي .

ان ريلكه يقول لفرانز كابوس : اني اريد ان ارجوك بقدر ما استطيع ذلك ان تكون صبوراً امام كل شيء يعتلج في قلبك ولم تستطع ان تجد له حلا بعد . اجتهد في ان تحب اسئلتك نفسها . فهل استطيع ان احب اسئلتي هذه التي اطرحها على نفسي وان اكون صبوراً في ترقب المشاكل التي تثيرها .

اني لا أتردد كثيراً عندما أجيب، واني لاعترف بان انظاري اتجهت نحو العالم الخارجي ولكني لا استطيع ان اعتبر الامة عالماً خارجيا بالنسبة لي عندما اتجهت اليها . واني لأصارح نفسي واقول باني كنت مخلصاً لها الى حد بعيد . لقد اردت المجتمع عندما كتبت وعملت ، وليس معنى هذا اني لم ارد نفسي فقسرتها على ما تكره . لقد كنت حتى في اللحظات التي يمكن ان تسمى اتجاهاً نحو العالم الخارجي اريد نفسي فلم اتجه الا نحوها ولم افعل الا ما شاءته .

واني لأشعر الآن بمقدار اخلاصي لنفسي عندما اكتب هذه المذكرات ، واني لأخط فيها باخلاص كل ما اشعر به ، ولن ازور اموراً بيني وبين نفسي فاخدعها لأخلق لنفسي هالة كاذبة .

ان ريلكه يجعلني اعتقد بصدق واخلاص انني لن استاء لو اطلع الناس على هذه المذكرات ، فهذه هي الحقيقة واني لفخور بها ولن استحي من نفسي .

***

٦ — ١١

لست اخشى شيئاً عندما اكتب هذه المذكرات خشيتي ان اضل فيها عن التعبير عن نفسي التي اريدها مرتسمة فيها بكل صدق واخلاص دون اي تحريف او تزوير . فانا اخشى ان تفقد كتابتي حرارتها فلا تعرض حقيقة الوضع النفسي الذي اعانيه في كل لحظة اكتب فيها ، ويغادرها هذا الجو الطبيعي البسيط الذي يجب ان تظل فيه ، فانزلق واحاول ان اسبغ عليها ذلك الطابع الادبي الذي فيه كما في الادب عادة ، ذلك الجهد الارادي والفاعلية التنظيمية التي يتعمدها الكاتب ليجعل من كتابته وحدة منسجمة تصمد للنقد ، فاحيا بذلك على غير السطح الذي يجب ان اكون فيه عندما اكتبها ، واعيش في عالم غريب عنها ، تفقد فيه هذه المذكرات كل قيمتها وهي انها محاولة شاب يريد ان يعكس نفسه على هذه الصفحات ليراها على حقيقتها بعيدة عن كل زخرف او تنميق ، فيستطيع على ضوء هذه الرؤية ان يتفهم نفسيته الغامضة بالنسبة اليه ويطلع على مجرى حياته الداخلية فيعلم الطريق الذي تسير فيه والاتجاه الذي ستنتهي اليه في المستقبل .

الا اني لا استطيع الا ان اقف قليلاً عند هذه الكلمة — المستقبل — فانها تثير في اليوم مشاعر جديدة وتوحي الي بمعان لم آلفها من قبل . ان هذه الكلمة لا تزال تخدع الكثيرين فيؤمنون بها كأنها حقيقة بينما هي ليست سوى كلمة ، وقعت في

شرك خداعها البراق كما يقع فيه كل شاب، فيرنو الى الامام ينتظر قدوم هذه الكلمة، ولكنها لن تأتي .

فكثيراً ما كنت اتطلع الى المستقبل، واخط لنفسي البرامج لحياة مقبلة ، وانتظر بفارغ الصبر قدوم هذا المستقبل لأنفّذ فيه ما عزمت عليه، الا اني كنت دائماً ارى بأم عيني اخفاق هذه البرامج التي وضعتها فلا يمضي القليل حتى اهزأ بما خططات لنفسي في الماضي كأني بعيد عنه بمراحل هائلة، وكأني قد تطورت حتى لم تعد لي بما صممت عليه اية صلة ، فالشاب لن يستطيع ان يخط لنفسه منهجاً ويدعي انه سيظل مصمماً على السير وفقه ، كما انه لن يستطيع ان ينظم حياته المقبلة في مراحل يعيّنها لنفسه، ويقول بان هذه هي الحياة التي سأحياها في المستقبل ، انه بذلك يريد ان ينظم الحياة ويصبها في قوالب ، غير ان الحياة لا يمكنها ان تحجز وراء اية حدود او تقف في وجهها اية حواجز مصطنعة .

كثيراً ما كنت اعزم على فعل اشياء لا اراني اذا ما اصبحت امامها الا وقد تصرفت تصرفاً مناقضاً لما كنت قد عقدت عليه العزم كأن هذا العزم سد قد وضعته في وجه سيل ، فلم يلبث هذا السيل في اللحظة المناسبة ان اكتسحه وذهب به .

فهذا الضغط الذي كنت أكره نفسي عليه حتى اقدم على امر، لا يلبث ان يتبدد عندما تطغى عليه تلك الميول الجارفة والانفعالات العميقة التي تكمن في نفسي فيفلت زمامها من يد تلك القوة التي تحاول ان تتحكم بها لتنطلق وتفعل ما تمليه هي على نفسها دون ان تكره على السير ضمن اية حدود مرسومة من قبل .

اني لأشعر بعمق ان للحياة ضرورات آنية يندفع المرء لتلبية ندائها دون اية محاكمة ، فالزمن لا يفسح لها اي مجال ، والنفس تندفع مع فطرتها ، فيتصرف المرء وفق ما تمليه عليه هذه النفس متحرراً من اي ضغط دخيل او تصميم سابق ، ينهار امام اندفاع الحياة وجيشانها في مسيلها الذي تنحدر فيه، فتبعث الانفعالات قوى تنعش الوجود وتشيع فيه الحيوية المضطرمة التي لا تستقر او تهدأ ابداً .

وثمة امر آخر اخشاه واخشى على مذكراتي هذه منه هو اني كثيراً ما تمر بي لحظات وازمات لا اخط عنها في مذكراتي شيئاً ، فلا تكاد تنقضي تلك الازمة ويمر الزمن حتى احاول ان اكتب شيئاً عما مر بي ولم أشر اليه. ولقد ادركت خطر هذا الامر ، فالنفس الساجية — التي كنت بها احاول ان اكتب عن ازمة — لا يمكنها ان تعبر تعبيراً صحيحاً عن الوضع الذي كانت به هذه النفس اثناء ثورتها واضطرابها ، ولا ان تخط بصدق واخلاص وصف تلك الازمة الماضية التي عانيتها ، فالنفس تفعل في كل ما تبقّى من تلك الازمة، في الذاكرة، فيكتبها المرء على غير حقيقتها دون ان يحياها آنياً ، ويتذكرها دون ان تعتريه حالاتها وظروفها عند الكتابة، وهكذا تفر هذه المذكرات من حرارة الازمة الماضية لتقع في برودة الحاضر الهادىء الذي يصاغ فيه التعبير عن الماضي العنيف ، فلا تخرج هذه المذكرات كما اريدها ، صورة لهذه النفس التي لا تركن الى حال او تستقر الى امر .

وفي كثير من الاحيان عندما احاول ان اكتب عن شيء مضى ، اراني اسبغ عليه بصورة لا واعية اشياء جديدة لم تكن فيه، واعطيه شكلاً خاصاً وطابعاً معيناً لم يكن له ، فافرغ فيه الكثير من نفسيتي الحاضرة ومما بها من مشاعر وانفعالات قد لا تكون لها أية صلة بما اكتب عنه ، وهكذا ارى مذكراتي تنحدر نحو تعبير خاطىء ليس عن نفسي بمجموعها فكل الانفعالات التي ادونها صحيحة، ولكن عن الحوادث التي تعتريني كل واحدة بمفردها، فانها على هذا الشكل وعندما اكتب عن الماضي ، انما تدون وقد اختلطت الحوادث النفسية الماضية بالحالات الحاضرة فلم يعد هناك ذلك التعبير الصحيح الذي ابغيه .

وكثيراً ما تمر نفسي بلحظات يخيل الي انها اسعد اللحظات ، الا اني عندما اعود الى تدوينها بعد مدة يكون قد تولاني انقباض وساورتني كآبة ، فاسبغ عليها هذا الطابع المتشائم الذي يحرف تلك الحالة عن حقيقتها ، ويعطيها في كثير من الاحيان طابعاً رومانتيكياً مفجعاً لا علاقة لها به ابداً ، ومثل هذا الطابع يعطيه الناس في اغلب الاحيان للحوادث التي يكون فيها طرف من مأساة ، فيصوغونها وكأنها فاجعة حقيقية ويضيفون اليها الصور والمواقف التي تجعل منها مأساة رائعة، كل ذلك بصورة لاشعورية يندفعون اليها بتلك الغريزة الرومانتكية التي تكمن في كل انسان ، فتجعلهم في احيان كثيرة يبالغون في الوصف ويغرقون في الخيال الذي يدفعهم الى الكذب الصريح والتناقض الجلي البيّن .

دمشق — هلال فاروق الشريف

يا بدر

☆

لنذير عصامي

☆

حمص

يا ضحكة السماء ، في خاطري ويا مُحيّا الخلد ، في ناظري
يا قمراً ، أومض ، خلف الدجى ، إيماض دوح القفر للسادر
يا بدر ، في ليلي الذي ماله من أول ، يمضي ، ولا آخر
ليلي الذي يصفر ، فيه ، الأسى ويلاه ، من هذا الأسى الصافر
ظلامه الغفلان لم ينتبه على اصطفاق الريش ، من طائر
ولجّه الساكن لم يرتعش على حفيف الزورق العابر
سهرانُ ، أعياني وأعييته ما غلب النوم على الساهر

***

يا بدرُ ، ناجيتُك ، مسترسلًا من قفصي المستعبد القاهر
قُضبانه تقسو على أضلعي يا رحمة الصباح للشاعر
هل ضاع ، يا بدر ، غنائي سُدى خلف خُطا نورك ، يا هاجري ؟
فررتَ ، لم تلوِ ، على رنّتي أو تلتفتْ ، اليَّ ، يا ساحري
كبّلني الليلُ ، وانت الذي تسرح ، في بهائك الغامر
شتان حالانا : جلالك الدجى وحرتُ ، في ليل المنى الحائر
تميس ، في سحبك ، زاهي الحلى كأنك العروس ، في السامر
سفحتُ نجوايَ ، فلم تصطبغ بها ، حواشي ضوئك الباهر !
ورحتُ أستسقيك خمر الرؤى لخافقي ، فلم تكن ناصري
تحدوك ، مني ، زفرات الهوى مهلًا ، لقد رُعت هوى الزافر

***

تمرَّ ، يا بدر ، ولا تنتقب ما خجل البدر ، من الناظر ؟
هذا وجيب القلب ، في جانحي يرعش ، من قُرّ الحمى الداثر
افقك ، للطير الطليق المدى وتلك أرضي ، للسرى العاثر
هلّا تنزّلت ، الى ساحتي تَنزُّل البشرى ، على الصابر
ان ورائي فلكاً زاخراً ضمَّ رحاب الفلك الدائر
صُبَّ ، طيوف الحب ، رقاصة ناعمة ، في قدحي الفائر
وانسج ، على عينيّ ، غيبوبة آوي ، الى نعيمها الباكر
عطّر ، سويدائي ، يا زنبقاً يفيض ، حولي ، بالسنا العاطر
واكشف ظلالي ، واطوها ، انها ظلال هذا القفص الفاجر

***

يا بدر ، معراجي ، اليك ، الضحى لهفي الى ذاك الضحى السافر
سأمتطي ، لألاءه ، صاعداً الى أماني روحيَ الثائر
سأكسر الطوق وأمشي ، على اشلائه ، مشي الفتى الظافر
وسوف أرمي ، ظلمات الدُنى ، جميعها ، بالكوكب الساخر
في مدفني البالي ، سأحيي غداً يضحك ، من أمسي ومن حاضري
عزيمة الجبار ، في هيكلي ، وكبرياء المارد القاهر

حكاية التكون الاجتماعي

بقلم فوزي غازي



انفق احد اقطاب الفلسفة اليونانية جهداً اي جهد في تمثل صورة الانسان الكامل فوجدها في انسان متوحد واسع مدى الفكر رفيع مدى الخيال كبير القلب يعيش في منقطع عن الناس بين احضان السفح والغدير منطلقاً في آفاق الطبيعة غير مساهم في انشاء شيء من البناء الاجتماعي المعد لاسكان ابناء جنسه . فهذه الوحدة وذلك الانعزال عنصرا عبقرية الرجل الكامل وركنا تفوقه وارتفاعه .

غير ان قافلة الفكر مضت تطعن مثل هذا الرأي الذي ينقصه السبب الاجتماعي فالكمال ليس ابداً في حدود الحياة الاجتماعية وفي ميدان النشاط التكتلي .

لو جنحت مخيلة البحاثة اليوناني الى غير الافق الذي جنحت اليه فمر بريشته على رجله الكامل مرة ثانية ناقلاً تلك الخصال والقيم التي منحها لبطله الى كائن آخر قبل بان يتسلق جدران المجتمع ليعمل على تشييدها وتعاون مع ابناء قومه ليزيد في ارتفاعها وتدعيمها . لو سكب تلك القيم في هذا البناء الاجتماعي لا في ذلك الناسك الزاهد مها طغى عليه الجمال لاتى مع الغاية او في مضمارها .

تنبه المفكرون منذ القدم الى وجوب انصهار الانسان في بوتقة الاجتماع ، اعني به ان يكون خاضعاً لقواعد وقوانين تربط الافراد وتحدد حقوقهم وواجباتهم . فمن فرد له دين قبل المجتمع ترتب في ذمته وشغلها الى مجتمع ذي حقوق على الافراد يقاضيهم بها ويطالبهم بانفاذها . لم يكن ارسطو عميد الفلسفة اليونانية الا من عداد الذين لفتت نظرهم الثاقب ضرورة التكتل والحياة الجمعية عندما قال في معرض تعريف الانسان : ان الانسان حيوان سياسي ، وقد عني بسياسي كونه اجتماعياً تواقاً الى التكتل . تلك كانت خلاصة الابحاث ونتيجة النتائج في كل مصر وعصر . . .

على هذا الشاطىء الامين دفقت المياه في اتجاه واحد واستقرت على الرمال استقرار الماء في الخمر . . . لا حياة لفرد خارج المجتمع ، انه كسنبلة نابتة في تربة مجدبة لا تلبث ان يجف عرقها وينضب ماؤها .

فوعى الفرد جزئيته المتممة للمجموع او المتممة بالمجموع . وعى وجوب اماتة بعض قيمته لاحياء قيمة المجموع . . . وعى انه حرف هجائي لا معنى له الا في ابجدية مؤلفة . . .

ومن هذا الوعي كان العقد وكانت ولادة المجتمع .

فما هو منطوق ذلك العقد وهل تعادل فيه الحريات الحقوق وهل كان العقد عادلاً ؟ .

(او بكلمة اوضح ما هي حقوق الفرد على المجتمع وما هي حقوق المجتمع على الفرد ؟) .

واذا عدنا الى اشاراتنا السالفة بشأن اذعان الفرد على التعاقد مع المجتمع والقبول بعروضه وشروطه ندرك عندئذ مدى حق الاول على الثاني ومدى حق الثاني على الاول ، ان الاحرار الشاردين اجروا الطبيعة وما فيها ضمن ملكيتهم واباحوا لنفسهم ما سولته لهم اباحته فكانت الفوضى وكان العوز وافتقار المورد . . .

والفوضى وافتقار المورد هما اللذان دفعا بالفرد على محالفة المجتمع والتعاقد معه تعاقداً يضمن له التنظيم والحياة .

ولا بد لنا قبل تحديد تلك العلائق وربطها ربطاً محكماً من القاء نظرة خاطفة على الانسان لنستطلع اهميته ومركزه بين المخلوقات . نريد ان نستقصي غور ذلك الكائن العجيب في الحقل الميتافيزي

والفلسفي حتى اذا ما هبطنا به الى المجتمع ليتعاقد ويتقاول ادركنا شروطه وبنوده وعلمنا حقوقه وواجباته .

وفي هذا الاحتكام الى الفلسفة دليل آخر يضاف الى عديد الادلة والبراهين على وجوب انطباق السياسة على مبادىء العقل والغربلة الحكيمة . ليست الفلسفة كما يريدها البعض علماً نظرياً سامياً لا اتصال له بهيكل الحياة العملية ومجرى الوقائع والمشاكل اليومية .

ان الفلسفة خزان الفكر في شتى مناحيه تبعثه نوراً ساطعاً يضيء سبل الانسان في سعيه لاشادة بنيانه الاجتماعي انه الحكم الاول والاخير في تصفية المعاضل وحلها انه الصاري في الانواء والمرشد الواعظ في الخطب والدهيا . . .

اما الواقع الانساني كما تعلمنا تلك الفلسفة فطائفة من القيم هي سر شخصية الانسان وحقها بالكرامة والحرية حق يهيب بنا عند اهتضامه الى بذل الحياة رخيصة دفعاً للخطر ودرأ للسوء . فما هي تلك القيم التي تحلي الانسان والتي تسترخص تلقاءها المهج والارواح انها ليست بمادة الانسان طبعاً اذ ليس للمادة حق بالحرية والكرامة . ان الانسان عقل وارادة والعقل والارادة حقوق وواجبات والحقوق والواجبات حرية وكرامة .

فعندما نقول انساناً نعني كلاً مستقلاً فقيم الانسان وحريته وحقوقه ترتبط بسلسلة مقدسة تنبع من علة وجودها وحركتها ان للانسان حقاً مطلقاً بالكرامة لانه يتصل بالواحد المطلق منشىء ذلك الحق وحاميه .

من هذه القيم الغالية التي ترضع الانسان وتمنحه طابعه الفريد وسط الكائنات والتي حدت بالشعراء والموسيقيين الى انشاد الوهية الانسان نستطرق الى كيفية ارتباطه بالمجتمع حتى اذا حددنا حقوقه وواجباته نكون قد استوحينا من فلسفة الانسان كذات مستقلة نضع على نورها الخطوط الكبرى التي يجب ان تحاك منها الشبكة الاجتماعية

قال الكتاب الامبركي Edwin Barchsham) ان الفرد رسم في البداية دائرة صغيرة جعل المجتمع عدوه خارجها ولكن المجتمع والضرورة عونه غلباه فرسما دائرة كبيرة جعلاه ضمنها .

يتضح من هذه الصورة الرائعة ان الانسان لا يمكن اخراجه من نطاق الجماعة وجعله في انعزال عنها ولكن دائرته الصغيرة المغمورة بدائرة المجتمع الكبرى ليست بالدائرة المسدودة . انها دائرة مفجوّة تتسلل اليها خيوط الدائرة الكبرى تباعاً حتى اذا ما بطل هذا التسلل وانقطع ذلك التداخل اختل التوازن الاجتماعي وعمت الفوضى

وبالفعل لسنا آلهة لا نوافذ اليها ولا ابواب . لسنا صنماً مرمرياً لا يسمع ويرى ويتكلم . اننا نتوق بطبيعتنا الى الحياة التكتلية والتناول الاجتماعي او قل ان الانسان في ضرورة ماسة وحاجة ملحة الى الخروج من ذاته والتعريف عنها وهل من يبثه هذه غير لذاته من الناس ؟

قال « جان جاك روسو » — ان نفس الانسان يجني عليه . ولم يكن مبدعاً فيما قال اذ سبقه الى ذلك سياك بعبارته الشهيرة : في كل مرة ذهبت فيها الى الناس كنت اعود رجلاً ناقصاً . مما يعني انه باعطائه بعض ذاته وتعبيره عن افكاره ومشاعره كان ينقص منه ما اعطى وما وهب . ولكن اما الحياة هذا الفرد في المجتمع غاية وهدف ؟

ان هدف كل مجتمع هو المصلحة العامة وليسمح لي بهذه المناسبة بوصفي احد ابناء القانون ان احدد المصلحة العامة وما تنطوي عليه من اعتبارات واحكام .

ان الافراد قبلوا باندماجهم في بوتقة الجماعة تاركين حرياتهم الشخصية السافرة وانطلاقهم الواسع معتنقين شرعة هذه الجماعة، ولكن اندماجهم وانصهارهم هذا قد تم في غاية العوض والمقابلة اي في غاية التأمين على مصالحهم وحقوقهم بواسطة كل واحد منهم وبهذا تتحقق المصلحة العامة، ليست المصلحة العامة في مصلحة الفرد — اي ليست المصلحة العامة مجموعة المصالح الفردية . —

ان هذا المبدأ يحلل المجتمع ويقوض اركانه مؤدياً الى الفوضى «فوضى الذرات» كما اسميت .

بقي لنا ان نقول ان المصلحة العامة هي مصلحة المجموع ومصلحة المجموع لها درجة ممتازة تمنحها حق الاولية والافضلية على مصالح الافراد وحقوقهم . ان الفرد ضحى بقبوله شرائط العقد الاجتماعي ببعض حقوقه وسلطاته ولكن مقابل مصلحة هي أرفع من مصلحته واوسع انه استبدل بحرية مطلقة حرية تنظمها وتحد منها حرية المجموع اذا ما مست الحاجة وطرح الخيار .

وكثيراً ما تتفق مصلحة الجماعة مع مصلحة الفردفتحقق الاولى دون ان توقف مشي الثانية وتسير المصلحتان في شكل خطوط متوازية لا تؤثر واحدة منها على الاخرى ، ولا يخفى ان تلك الخطوط قد تشتبك احياناً وتصطدم ويؤدي اشتباكها الى النزاع. ولكن هل ثمة نزاع حقيقي ومواضعة من المجتمع على حقوق الافراد ؟

عندما يقضى بالانتقاص من بعض حقوق الفرد تأميناً للمصلحة العامة فذلك يستهدف بالفعل اذا امعنا النظر مصلحة الفرد . ان مصلحة الفرد الحقيقية يفقهها المجتمع اكثر من الفرد واذا حد له من حريته في بعض الاحيان فلتدعيم مصلحته وتثبيتها بعد ان يكون اوجد له بنتيجة الدرس والتحري نوعاً جديداً من المصالح والامتيازات هي انفع من حرية عمل او قول غير خاضعة للمراقبة والقانون ينجم عن استعمالها ضرر جسيم وغبن فادح بمصلحة المجموع وفي غبن المجموع كما لا يخفى غبن للفرد ومضرة.

ولكن ومهما يكن من امر فلا بد من حصول تشابك جدي بين الفرد والجماعة ينتصب معه العقل لتقرير مشروعية توغل احد المشتبكين في اراضي الثاني وحدوده.

لا شك ان المجتمع افضل من الفرد اذ الكل افضل من الجزء .

لو كان الانسان روحاً صرفاً لا تعتريها مادة الجسد لهان الامر ولكان خير المجتمع في خير كل فرد يعيش فيه . لكن الفرد ليس بالانسان الروحاني الصرف لقد تغلغلت في روحه وركزت الفردية المادية فألبس الجسد واخذ هذا الجسد يفرض عليه رغائبه ومطاليبه فاضطره لمحالفة امثاله من الافراد لتأمين هذه الرغبات وتحقيق تلك المطالب.

وهنا ولمعرفه الحل الذي نصدره لفصل الاشتباك الواقع بين الفرد والمجموع المشار اليه نضع نصب اعيننا مبدأين اساسيين بنت عليهما الشعوب فلسفتها السياسية ونصوصها التشريعية الكبرى.

الاول ان الفرد يتعاقد مع الجماعة ويضع تحت تصرفها بعض ما يملك من حقوق ويصبح بهذا التعاقد جزءاً منها وعضواً فيها؛

والثاني – ان الفرد بجميع ما فيه وبكل ما يملك من مواهب وحقوق يتعاقد مع المجتمع ويصبح جزءاً منه وبعبارة السياسة لا شيء فيه يكون خارج الدولة لا شيء ضد الدولة كل شيء في نطاق الدولة.

ما يكون موقفنا ياترى من هذين المبدأين الشاملين . انتهج الاول قائلين بوجود قوى واجواء مثالية في الانسان لا يسوغ للمجتمع ان يسيطر عليها ويتحكم فيها لاتصالها بالروح، او على النقيض نؤمن ونسلم تسليماً كلياً بشاعية الفرد وملكيته المطلقة للمجتمع بحرياته وممتلكاته الفكرية والروحية.

لم يكن العقل الدولي ليمر على تلك النظريات والمبادىء دونما خيار وتقرير مصير سرعان ما اعلن عن ميله وعقيدته فانقسم العالم الى : فئتين فئة « مركزية » ديكتاتورية عصرت الفرد بين فكيها الغليظين عصراً ذابت معه ذاتيته وانحل استقلاله فامسى قطرة شائعة في كأس المجتمع لا هوية له ولا شخصية. وقد كان لتلك الفئة انصار وتبعة انتشروا هنا وهناك مستزيدين تفاصيل وشروحات على المبدأ الرئيسي عاملين على مسخ انسانية الانسان وسلبه فرديته وكيانه كذات مستقلة متصلة بالواحد المطلق انبعثت منه وستعود اليه .

والى جانب تلك الفئة عصف الضمير وانتصبت الحرية مارداً جباراً عالي الجبين فكانت فئة الحرية . الفئة الشعبية التي انعكست على صفحاتها صورة الله في وضوح وجلاء ورفع كتابها الى الانسان المستقل فكانت نعمة على الكون وعزاء.

نعمة نعمنا بها وسننعم ما دام في الاذهان والضمائر سيف لحق وثورة لكرامة.

نعمة نعمنا بها وسننعم ما دام الوعي الروحي ينسم في النفوس ويقيم الصلاة لنصرة الحرية ودرء السوء عنها.

نعمة نعمنا بها وسننعم ما دام في مادتنا روح وفي روحنا آله.

من خيوط تلك الفئة سنحيك شبكتنا الاجتماعية .

ولكن شبكتنا ليست كسائر الشبكات حلقاتها مستمسكة ومرتبطة بانتظام رائع. غير ان حركتها وان كانت رهن اشارة الشبكة باجمعها لكنها قد تتفرد عنها وتستقل احياناً ، تنفرد عنها وتستقل بالحقوق التي استمدتها من محرك الشبكة وعلة وجودها !... تنفرد عنها وتستقل بحرياتها الشخصية وعقائدها تنفرد عنها وتستقل بما اولاها الله اياه من قوى روحية تنفرد عنها وتستقل بما هو كل مقدس فيها.

اننا نقر دائرة المجتمع الكبرى وندعن لتركيز دوائرنا الصغيرة ضمن حدودها كما يريد الكاتب الاميركي « بارك شام » غير اننا نضن بان تكون دائرتنا متهافتة الجوانب لا تجعل منا كلاً في جزء لنكون حقيقة جزأ من كل...

فوزي غازي

المحامي

النفسية العربية ورمزية الاساطير الجاهلية

بقلم عدنان الذهبي

☆

... ثم يا حبيبي ، هرعت اطوف في المدينة ... كنت وحدي ، آه ، وحدي ، ذاهلة ، كئيبة كالغريب ، اتأمل كل شيء واتلذذ بكل شيء ... مسكني الحراس ، مسكني حفظة الاسرار ... وعذبوني! وعذبوني آه! فحزنت وسكت ، ثم فرحت وسكت ... وما راعني يا حبيبي الا انغامهم الرقراقة العذبة ، انغام كانوا كلهم يرددونها ، انغام ذكرتني بك ... ومن يدري ، من يدري غيرك يا حبيبي ، لعلهم يريدونك ؟! .. ولكن ... آه ترى هل تضيع هذه الانغام ؟! . انغام النار والحجر ، وانغام الماء والطين ، وانغام هذه الكروم الجميلة الجبارة !؟! يا حبيبي ، واين انت اذن ؟! . اين انت ؟! .. بل من تكون ؟! . احسك ولا المسك ... واشعر بك ولا اجدك ... واعيش فيك ولا افهمك .. يا بنات اورشليم ، استحلفكن يا بنات اورشليم ان رأيتن حبيبي ان تقلن له : « اني مريضة حباً .. »



اذا أنعمنا النظر في تاريخ التطور الفكري الذي مرت به الانسانية حتى وصلت الى التوحيد الذي جاءت به الاديان السماوية [1] ، تبين لنا ان الاسطورة – وسندقق بعد قليل في معناها العلمي – كانت هي الشكل الاول الذي تجسدت فيه الفكرة الدينية في مختلف البيئات في العالم ، وانها نفسها قد اصطبغت ، في تلك المرحلة الفكرية (الطور الاسطوري) بصبغات مختلفة هي تلك الصبغات التي تعزى عادة الى البيئة التي وجدت فيها الاسطورة ، والى نظم الحياة فيها .

والعلم الذي يدرس الاساطير – الميثولوجيا – علم من امتع العلوم الحديثة التي قيض لها في اواخر القرن الثامن عشر من يتفرغ لها ، ليفصلها عن غيرها من العلوم التي تتعلق بالاديان ، ويجعلها تختص فقط بدراسة كل ما يتعلق بتلك الفترة الروحية التي اوجدت كل هذه الاساطير في العالم : سواء كان ذلك ما يتعلق باساطير تلك الفترة نفسها ، او ما يتعلق بالاطوار المختلفة التي مرت بها تلك الفترة القديمة .

(1) Essais sur l'histoire des Religions-Max Muller - Paris - 1872

واما ما يتعلق بهذه الاطوار فالميثولوجيون يقولون : ان الانسان قد مر اول ما مر ، كما نرى هذا بصورة عملية في كتاب (Introduction to Mythology) للعلامة لوي سبنس (Lewis Spence) بطور ما قبل المذهب الحيوي (pré-animism) ثم بطور المذهب الحيوي (Animism) ثم بطور المذهب الطوتمي (totemism) والمذهب الفاتشي (fetishism) ثم بطور المذهب الذي يقول بتعدد الآلهة (polytheism) واخيراً بطور التوحيد (monotheism) ولقد طبق الاديب الهندي الدكتور عبد المعيد خان ، في كتابه القيم عن (الاساطير العربية قبل الاسلام [1]) ، هذه النظرية على العرب ، واستطاع ان يثبت ، رغم ضياع اكثر الاساطير الجاهلية ان العرب انفسهم قد مروا في بيئتهم الصحراوية ، تلك التي لا تساعد على توليد الاساطير ، بهذه الاطوار ذاتها حتى انتهوا الى التوحيد المثالي الذي جاء به النبي محمد .

هذا من جهة الميثولوجيا كعلم اجتماعي حديث ، ولكن ، قد وجدت هنالك ايضاً ، ومنذ القدم ، مشاكل عدة تتعلق بفهم

(1) الكتاب من طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر – ١٩٣٧ .

الاساطير وشرحها : الامر الذي كان سبباً لوجود تلك المدارس العديدة التي تعرضت لفهم الاسطورة وشرحها ، كالمدرسة التاريخية التي قالت ان الاسطورة هي التاريخ بصورة مموهة ، والمدرسة الاخلاقية التي قالت ان الاسطورة هي تفسير لبعض الشعائر الدينية او الحكم الواعظة ، والمدرسة الرمزية - الرمزية الاجتماعية او الرمزية التحليلية - التي قالت ان الاسطورة مرآة تنعكس عليها نفسية مبدعيها .

ولا يخفى اننا حين نتعرض اليوم لدراسة الاساطير الجاهلية ، انما نتعرض لها من وجهة نظرتنا الخاصة : الوجهة الرمزية ... ونحن لم ننح هذا المنحى الا بعدما رأينا ان الاساطير الجاهلية وحدة رمزية تامة ، قد فتحت امامنا آفاقاً جد هامة على النفسية العربية التي ما زلنا نستشفها من بين الاحداث التاريخية والادبية والفلسفية .

ولكن قبل هذا ما هي الاسطورة ؟ !.. اما العرب القدامى فقد قالوا في شرح كلمة (أساطير) - وكلمة (اساطير) هي عند بعض اللغويين جمع لاسطارة واسطيرة واسطورة ، وهي عند البعض الآخر جمع لا واحد له - قالوا : « والاساطير الاباطيل والاكاذيب والاحاديث التي لا نظام فيها ... الخ ... » كما جاء في شرح القاموس تاج العروس . ولا يخفى اثر التعصب الديني في هذا التعريف ... ولكن ، لنقبله كمقدمة للتعريف العلمي ، مقدمة ان كان لنا ان نفيد منها شيئاً ، فالفائدة منها تنحصر حقيقة ، في ان الاسطورة صورة مشوهة لمعتقدات اناس كانوا يتخبطون في الباطل ...

واما التعريف(١) الحديث للاسطورة (Myth) فها نحن اولاء نقتطفه من كتاب العلامة لوي سبنس - (Introduction to My thology) قال : « الاسطورة قصة تسرد افعال آله او كائن غير طبيعي ، وهذه القصة مصبوبة ، بصورة طبيعية ، في قوالب التفكير البدائي . وهي (اي الاسطورة) تجربة ممن وجدت عندهم (او محاولة) لشرح علاقتهم بالعالم ، ولذلك فقد كان لها في نفوس من كانوا يدينون بها قيمة دينية مسيطرة ، ويصح ان تكون قد وجدت لشرح وضع من الاوضاع الاجتماعية ، او تقليد من التقاليد او خاصة من خواص بعض الامكنة » . فهذا اذن التعريف العلمي للاسطورة ، ونستطيع ان نستخلص منه ان الاسطورة ، بادىء ذي بـدء ، قصة تدور حول شخصية مقدسة وانها من جهة ثانية قد صيغت بصياغة الفكر البدائي - ومن هنا يحق لنا ان نعتبرها رمزية - وانها اخيراً كانت نتيجة علاقة الانسان بالبيئة التي تحيط به ... فهل وجدت الاسطورة عند العرب اذن ؟ ! .. الجواب سيكون من غير شك نعم ، ولكن ، ماذا تتوقع ، يا صديقي القارىء ، ان تكون هذه الاساطير ؟ ! .. أتتوقع مني ان اجد لك جبيتيراً وحوله زوجه واولاده واحفاده واعمامه من بني عشيرته والى ما هنالك من آلهة وانصاف آلهة قد اصطنعها الرومان ، كما اصطنعها الاغريق من قبل - وجبيتير (Jupiter) الاغريق هو زيس (Zeus) - اصطنعوها ليجسموا فيها افكارهم عن الارض والسماء ، والليل والنهار ، والحياة والموت ، والعدل والظلم ، والحب والجمال والحكمة والمعرفة والى ما هنالك مما كان يخامر نفوسهم في بيئتهم السحرية تلك ؟ ! ... ام هل تتوقع مني ان اسرد عليك مغامرات ، تذكرنا بمغامرات هذه الآلهة الاغريقية الرومانية ، او مغامرات آلهة البابليين والآشوريين او آلهة المصريين او الهنود ؟ ! . لا ... لا ... اعذرني يا صديقي القارىء ، ان كنت اصارحك من الآن بعزوف العرب عن هذه الناحية ... فالامة العربية التي لها طابعها الخاص في الشعر والنثر والنقد والتاريخ لها ايضاً طابعها الخاص في الاساطير ... وهذا يرجع بالطبع الى البيئة التي وجد فيها العرب ... أفتدري حول اي شيء تدور هذه الاساطير الجاهلية ؟ ! ... انها تدور حول الاشياء المادية المحسوسة : حول الجبال وحول الحيوانات ، وحول بعض النجوم .. وهي تدور حول هذه الاشياء في ذاتها من غير ان يصل العرب الى تجريد شخصية مستقلة لهذه الجبال او الحيوانات او النجوم يحيكون حولها (اساطيرهم) ، كما فعل مثلاً الاغريق او البابليون او الهنود ... ومن اجل هذا قل الابداع في الاساطير الجاهلية ، بل طُمس اثره ، حتى اننا يحق لنا بعد كل شيء لعمري ، ان نتساءل الى اي حد نستطيع ان نسمي هذه الاقاصيص (اساطير) ؟ ؟ .. ولكن ، بما ان هذه الاقاصيص - والتي لا يوجد غيرها على كل حال - تصور لنا معتقدات جماعة في مرحلة فكرية معينة ، وفي بيئة طبيعية واجتماعية معينة ، فلا بأس من ايرادها في حظيرة الاساطير ! ! ! وقد تعجب مني حين تراني ادقق كل هذا التدقيق لقبول هـذه

---

(١) للاسطورة تعاريف عديدة ومختلفة ، قد اوجدتها بالطبع تلك المدارس التي اشرنا الى بعضها في مقالنا فوق ، ولكننا اخترنا هنا هذا التعريف لانه عام شامل او كما يقولون جامع مانع ... راجع من اجـل هذا : «Introduction to Mythology»... Lewis Spence-1921

الاقاصيص على انها (اساطير) . . . ولكن ، انا اؤكد لك[1] انه اذا قرأ عالم من علماء الميثولوجيا الغربية أحرفي هذه ، اؤكد لك انه سيعجب من وقوفي على هذه الاساطير ، او بالاحرى اشباه الاساطير اذا قارناها بالاساطير الاغريقية او البابلية او الهندية مثلاً . . . وانا مضطر الى دراسة هذه الاقاصيص التي تمثل ناحية هامة من نواحي النفسية العربية . . . وسترى معي ، يا صديقي القارىء ، ان هذه الاساطير البسيطة المادية المفككة ان هي في الحقيقة الا رموز عميقة — رموز فلسفية لعمري — تؤلف وحدة تامة ، قد تبلورت فيها نفسية اولئك العرب البداة قبل ان يبزغ فجر الاسلام بين ظهرانيهم .

وهذه هي اساطيرهم[2] . . . قالوا في جبل (ابي قبيس) العظيم الجاثم على مكة : « الجبل سُمي باسم (ابي قبيس) بن سامخ ، وهو رجل من جرهم كان قد وشى بين (عمرو بن مضاض) وبين ابنة عمه (ميه) فنذرت ان لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها ، فحلف ليقتلن ابا قبيس ، فهرب ابو قبيس منه الى الجبل المعروف به . . وانقطع خبره . . . »

وقالوا فيه ايضاً : « ان (آدم) كناه بـ (ابي قبيس) حين اقتبس منه النار التي بين ايدي الناس . . . »

وقالوا ايضاً في جبلي الحجاز العظيمين الهائلين (أجا وسلمى) : « (اجا) اسم رجل تعشق (سلمى) وجمعتهما (العوجاء) وكانت حاضنة لسلمى ، وكانا يجتمعان في منزلها ، حتي نذر بهما اخوة سلمى وهم (الغميم) و (المقل) و (فدك) و (فائد) و (الحدثان) فهرب (اجا بسلمى) وذهبت معهما (العوجاء) فتبعهم (زوج) سلمى . فادركهم وقتلهم وصلب (اجا) على احد الاجبل فسمي (اجا) ، وصلب (سلمى) على الجبل الآخر فسمى (سلمى) وصلب (العوجاء) على الثالث فسمى بها . . . »

وقالوا ايضاً فيهما : « سار (طي) بابله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما ارضاً لها شأن ورأى فيها شيخاً جسيماً مديد القامة على خلق العاديين ، ومعه امرأة على خلقه يقال لها (سلمى) . وقد اقتسما الجبلين بينهما . و(اجا) رجل من العماليق يقال له (اجا بن عبد الحي) عشق امرأة من قومه يقال لها (سلمى) فسألهما (طي) عن امرهما فقال الشيخ : « نحن بقايا صحار ، غنينا بهذين الجبلين ، عصراً بعد عصر ، افنانا كر الليل والنهار . . . » فقال له طي : « هل لي في مشاركتي اياك في هذا المكان فأكون لك مؤانساً وخلاً . . . » فقال له الشيخ : « ان لي في هذا رايا . . . فاقم . . . » فاقام ، ولكن ما لبث ان مات اجا وسلمى . . . وخلا له المكان . . . »

وقالوا ايضاً في جبل عرفات : « انه سمى عرفات لتعارف (آدم) و (حواء) عنده . . . »

وقالوا ايضاً في بعض الحيوانات : « ان (الديك) كان نديماً للغراب ، وانهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئاً ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن ، ورهن الديك ، فخان بالديك[1] وبقي هذا محبوساً . »

وقالوا ايضاً في الغول : « ان (عمرو بن يربوع) تزوج الغول واولدها بنين ، ومكثت عنده دهراً وكانت تقول له : « اذا لاح (البرق) من جهة بلادي ، وهي جهة كذا ، فاستره عني ، فاني ان لم تستره تركت عليك ولدك وطرت الى بلاد قومي . فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره . ولكن حدث في غفلة منه ان ابصرت البرق . . . وطارت . . . »

فهذا اذن ما بقي لنا من اساطير الجاهلية . وهنالك ايضاً اساطير تتعلق بالنجوم[2] هي في الحقيقة تشويه لأساطير بابلية تسربت الى العرب .

فلنتدارس اذن هذه الاساطير . . . اول الامر ، يجب ان نلاحظ ان هذه الاساطير لا تدور حول جميع جبال الجزيرة العربية اوحول جميع حيواناتها ، ولكنها تدور حول بعض الجبال ، وهي جبال ضخمة هائلة كانت العرب تخشاها ، وحول بعض الحيوانات ، وهي

---

(١) وكذلك انا اؤكد لك انه اذا قرأ عالم من علماء الميثولوجيا الغربية كتاب الدكتور عبد المعيد خان في الاساطير العربية قبل الاسلام ، اؤكد لك انه سيعجب مما ذهب اليه الدكتور حين درس الاسطورة والاطوار الاسطورية ، لا في القصص والخرافات وحدها ، ولكن في العادات والتقاليد الاجتماعية ايضاً ، ومع هذا ، فالدكتور معذور ، وهو قد اضطر الى هذا الامر اضطراراً . . .

(٢) لقد اعتمدنا من اجل جمع هذه الاساطير على كتاب (الاساطير العربية قبل الاسلام) وكتاب (الحيوان) وكتاب (معجم البلدان) وكتاب (التيجان) وكتاب (بلوغ الارب) .

(١) من الجميل ان نذكر هنا ما علقه الجاحظ على هذه الاسطورة في كتاب الحيوان قال : « فان كان معنى الخبر على ظاهر لفظه ، فالديك هو المغبون والمخدوع والمسحور به ، ثم كان المتلعب به انذل الطير والأمه . . . وان كان هذا القول منهم يجري مجرى الامثال المضروبة ، فلولا عليا الديك في قلوبهم دون محل الغراب — على لوم الغراب ونذالته وقلة معرفته — لما وضعوه في هذا الموضع . . . »

(٢) راجع من اجل هذا كتاب (الاساطير العربية قبل الاسلام) ص ١٢٠ — ١٢١ — ١٢٢ .

حيوانات كانت العرب [1] تعتقد في انها هي الجن او ان لها صلة ما بالجن ، وحول بعض الشخصيات التاريخية ، وسنرى الى ايحد نستطيع ان نقف عند المعنى اللازم لأسماء هذه الشخصيات ... هذا ما يتعلق بابطال هذه الاساطير الجاهلية،اما اسماء هذه الابطال واسماء اشخاص الاساطير الجاهلية كلها بصورة عامة ، فهي موضع عجب لعمري .. نعم ، اننا لا نستطيع الا ان نعجب لهذا الايحاء الكبير الذي تحمله اسماء الاشخاص في الاساطير الجاهلية . فانظر اليها ترها : (قبيس ، برق ، نار ، ميه ، اجا - يعني فر ، سلمى - من مادة سلم ، الغميم - من مادة غم ، الحدثان ، العوجاء ، آدم ، طي - من مادة طوى ، حواء ، عمرو بن مضاض -- من مادة عمر ومادة مضض،عمرو بن عبد الحي،عمرو بن يربوع ... وهكذا .) مما يشعرنا تمام الشعور بوجود رابطة رمزية نفسية تجمع بين هذه الاسماء كلها ... واخيراً ، من جهة دراسة موضوع هذه الاساطير فنحن اذا تجردنا عن الحوادث البسيطة ، ونظرنا الى الفكرةالعامة المسيطرة على حركات ابطال هذه الاساطير ، فاننا لا نستطيع الا ان نعجب ايضاً لتكرار موضوع واحد في جميع هذه الاقاصيص : وهذا الموضوع هو تخاصم ، بل تطاحن بين كائنين فعالين قويين هما اولاً الرغبة في الاستقرار (وهي تتمثل في سلمى ،وفي عمرو ، وفي الديك المقيد ، وفي عمرو بن يربوع الذي يفعل المستحيل لابقاء الغول عنده ، وفي اجا والعوجاء وسلمى المغلوبين ، وفي عمرو بن عبد الحي .. الخ ..) ثم الفرار او عدم الاستقرار (وهو يتمثل في اجا - يعني فرّ ، وفي فرار ابي قبيس ، وفي فرار الغراب ، وفي طيران الغول ، وفي الحدثان ، وفي عمرو بن مضاض .الخ .) تطاحن ينتهي بانهزام رغبة الاستقرار كما سنرى هذا بعد قليل !!! فهل نستطيع بعد هذا كله ان نقول ان هذه الدلائل جاءت وليدة عبث او مصادفات؟! . لا !! .

فنحن لا نستطيع قط ، امام هذه الظواهر الايحائية القوية التي تتعلق كما رأينا بابطال الاساطير الجاهلية ، وباسمائها ، وبالاعمال التي كانوا قد قاموا بها ، لانستطيع قط ان نقف مكتوفي الايدي مشدوهين ، ننظر الى السماء ، راجين لهؤلاء الضالين المغفرة والجنة .

... بل ترانا مرغمين على ان نفهم هذه القصص الايحائية التي لا يمكن لها بأي لون من الالوان ان تكون عبث روائي او عبث شاعر ، بل هي انتاج نفسية باسرها ... وسترى معي الآن ، ان هذه الاساطير التي تبدو مفككة قد هيكلت فلسفة العرب القدامى الفطرية ،قد هيكلت هذه الدهرية التي رمز اليها القرآن الكريم حين قال على لسانهم : « ان هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ... »

نعم ، البدو السذج دهريون بالفطرة . وقد يبدو هذا عجيباً ولكن،اذا نحن تذكرنا ان الفلسفة الدهرية نقطة حساسة تجتمع عندها السذاجة البدوية بالترف العقلي ، اذا تذكرنا هذ لا يلبث تعجبنا ان يتلاشى ... ثم ، كما ان الاساطير هي من انتاج الجماعة لا من انتاج الفرد ، فلا عجب اذن ان نرى الاساطير الجاهلية اساطير دهرية ينقصها الكثير من العاطفة الصوفية التي نجدها مثلاً عند اليهود والبراهمة خصوصاً، كما ينقصها الكثير من الخيال الذي نجده مثلاً عند الاغريق او البابليين ...

فنحن لا نجد عند العرب (مينرفا) او (عشتروت) او (بَرَهما) ولا عجب ... بل ساقول لك اكثر من هذا : نحن لا نجد عند العرب اساطير تتعلق باله الحرب ، بل لا نجد آلهاً للحرب [1] عندهم - رغم ما نظن نحن كلنا ان الجاهليين امة حربية متوحشة - والواقع هو غير هذا ، ساشرح هذه الامور كلها بعد قليل ...

اذن لنرجع الى تلك الاساطير ، ولنرجع الى اجواء الجاهلية ، ولنرجع الى نفسية اولئك البداة الدهريين .

ارأيت الى الطبيعة الجبارة التي تحيط بهم ، بجبالها العظيمة الراسية ، وبيدها الفسيحة التي لا تتبدل ، وبشمسها المحرقة التي لا تغيب الا لتبدو ، ولاتبدو الا لتغيب!!! . ارأيت الى هذه الطبيعة!! . انها الدهر ... انها الهم ... نعم الدهر هو الطبيعة في نظر الجاهليين : انه (ابو قبيس) الذي راى (آدم) [2] ابا البشر ، انه (اجا وسلمى) اللذان هما كما قالا عن نفسيهما : «نحن بقايا صحار افنانا كر الليل والنهار ... » ، انه هذه (النار) القديمة التي اقتبسها (آدم) من هذا الجبل القديم (ابي قبيس) ، انه هذه (الميه)

---

(١) جاء في بلوغ الارب نقلاً عن الحيوان : « ان العرب يعتقدون في الديك والغراب والحمامة والورل والقنفذ والارنب والظبي واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة . فمنهم من يعتقد ان للجن بهذه الحيوانات تعلقاً . ومنهم من يزعم ان الورل والقنفذ والارنب والظبي واليربوع والنعام مراكب الجن ... الخ ... »

(١) واما قزح ، وبالتالي نار المزدلفة ، فهو اله البرق والرعد اكثر منه اله الحرب . ونحن لا نجد له اي اسطورة في هذا الميدان الحزبي ، رغم اننا نجد له تقاليد اجتماعية كثيرة تتعلق بالاستمطار ...

(٢) اما وجود فكرة (آدم) عندهم ، وهي فكرة دينية ، فيمكننا ان نعزوها الى بقايا تعاليم دين ابراهيم او الى التيارات المسيحية واليهودية هناك ...

القديمة التي وشى ابو (قبيس) بينها وبين (عمرو بن مضاض) (ولا يخفى ما في عمرو من ايحاء يذكرنا بعمر وما في مضاض من ايحاء يذكرنا بمضض كما سنرجع الى هذا)نعم الدهر هو كل هذا. وليت شعري ، هل هنالك في العالم اساطير تقطر بالدهرية مثلما تقطر بها هذه الاساطير الجاهلية؟!.. لقد عهدنا الاساطير تدور حول(بدء الخلق)وحول(النرفانا)،وعهدناها تدور حول(الحرب) و(النصر) وعهدناها تدور حول (الحب) و (المعرفة) والى ما هنالك من هذه النواحي الانسانية ،واذا بنا نجدها عند العرب تدور حول دهرية يائسة،وتدور حولها بصورة فطرية لا شعورية مما نستطيع معه ان نقول بل ان نجزم بان هذه الدهرية هي طابع اولئك العرب القدامى كلهم.. نعم،وقد تقول لي وماذا تفعل بالمتحنثين ، وبعاطفتهم الدينية؟!.. فاقول اني لا انكر انه قد وجد هنالك في مدن الجزيرة العربية افراد قلائل قد تأثروا بالتيارات المسيحية واليهودية عن طرق شتى ، فجربوا ان يغوصوا في انفسهم وان يترفعوا الى مفهوم آله هو علة العلل. ولكن انا لا اعرف شيئاً ثابتاً عن هؤلاء ، ولا عن افكارهم ، ولا عن اناشيدهم العاطفية ، او قصصهم الدينية... هذا من جهة ؛ ومن جهة ثانية ، يجب ان لا ننسى ان الاساطير ليست من انتاج رجل واحد ، كاهناً كان هذا الرجل او شاعراً او قصصياً، ولكنها من انتاج امة بأسرها. ولهذا فوجود بعض المتحنثين لا ينفي قط وجود هذه الاساطير ، وبالتالي دلالة هذه الاساطير على النفسية العربية .. ثم سترى معي بعد قليل ان هؤلاء المتحنثين انفسهم لم يسلموا من هذه النزعة الدهرية نعم... ولكن ، هل معنى هذا ان الاساطير الجاهلية قد خلت من كل عاطفة انسانية؟!.. الحقيقة ان في اساطيرنا الجاهلية العربية الى جانب هذه الناحية العقلية الدهرية ، ناحية انسانية عاطفية رقيقة ايضاً. ولكنها—بالطبع—لا تخرج عن حدود هذه الدهرية وهذه الناحية هي: صورة عذاب الآمل في الحياة وسط تلك المجزرة البشرية الصامتة... فهي (اجا وسلمى) العاشقان يطاردهما الناس وينتهون بصلبها،وهي هذا العمر المضنى (عمرو بن مضاض) الذي عشق (ميه) عشق الراحة والركود والصفاء ولكنه ما يكاد يتنعم بحبه حتى يشي به (ابو قبيس) .. وابو قبيس هو الدهر نفسه.. هو هذا العمر العجيب (عمرو بن يربوع) (ويربوع كما رأينا حيوان كانوا يعتقدون انه من الجن)الذي فعل المستحيل لابقاء زوجه عنده ، ولكن (البرق) هذه النار القديمة ، وهو الدهر ايضاً ،يحول بينهما.. هي هذه الكائنات العجيبة (الديك) و (الغراب) عند (خمار) ، وهذا الخمّار هو الدهر ، ينغص عليها لذة الخمر ، والخمر هي الدنيا ، فيطالبها بالثمن ، والثمن هو الموت ، فيهرب الغراب العاصي ، ويقيد الديك الجميل الضعيف ولكن يظل الغراب في نية الرجعة ، ولذلك تشاءمت منه العرب بصورة لاوعية... نعم هذا كله يصور لنا هذه الناحية الانسانية العاطفية الثانية... وهكذا اذن يتضح لنا ما اغلق من امر هذه الرموز الاسطورية التي وقفنا على جانبها الفلسفي والشعرى ... فماذا نفيد منها اذن من اجل النفسية العربية؟!.

قبل ان نجيب على هذا السؤال لا بد لنا من ان نلخص ما قلناه في مقالاتنا السابقة عن النفسية العربية،حين فصلنا على صفحات هذه المجلة اثر البيئة الجاهلية ، في نظم العرب الاجتماعية والثقافية والدينية: فوجدنا انهم لم يكن لهم علم ولا فلسفة بالمعنى الصحيح، وانهم كانوا يعيشون على صفحة بحيرة نفوسهم الراكدة،لا يسبرون غورها ولا يمرون بازمات نفسية حادة ، اللهم الا النابغة في بعض رمزيات رأيناها ، وانهم بعد كل شيء كانوا محدودي الخيال لا يعدون الواقع حتى في دياناتهم المادية التي كانت عبارة عن حركات جاءتهم من الخارج [1] ، او عبارة عن منفعة قريبة ، او شعور بالجمال مؤقت... نعم كل هذا قد قلناه ، وكل هذا يجب ان نذكره الآن لنخطو من جديد خطوتنا الاخيرة نحو النفسية العربية التي تجمدت في الاساطير الجاهلية. اما ان نبين في هذه الاساطير ، بادىء ذي بدء ، ما انتهينا من ذكره عن هذه النفسية فهذا امر سهل: فاذا نظرنا الى الخيال في هذه الاساطير نجده خيالا هزيلاً سطحياً مادياً،وكذلك العاطفة فهي عاطفة رجل عادي،ولكن التفكير ، وان كان تفكيراً بدائياً ،فهو تفكير خاص ،تفكير حسي ، كافر بالاسرار ، وكافر بالتجريدات.. وقد وقفنا على هذه الظاهرة النفسية الاخيرة ايضاً حين كنا نتكلم عن فكرة السر في الجاهلية ، ولكن في الحقيقة ليس هنالك ، بين النصوص الجاهلية ، نصوص ثابتة وصادقة مثل هذه الاساطير الفريدة ، لتصور لنا هذا التفكير الخاص اتم تصوير.. ولذلك فها نحن اولاء

(١) — يقول الدكتور محمد عبد المعيد خان: «فهو(اي العربي الجاهلي) مع كونه وثنياً كان يعيش عيشة دينية مثل اليهود والنصارى والصابئة ، فهو يحج ويعتمر بدل ان يقيم الاسواق القديمة مثل عكاظ وذي المجاز ، ويعتقد شبه عقائد اليهود ، ويعبد الاوثان كعبادة الصابئة للكواكب ، لكن غرائزه الطبعية كانت تسوقه الى دين الآباء القدماء ، فكان يخضع لسلطان الطبيعة اكثر من خضوعه لدين اليهود والنصارى فهو يعبد الحجر والشجر. .الخ..» ص ٢٠ من كتاب(الاساطير العربية قبل الاسلام).

نلفت النظر اليه الآن من جديد ، لنستطيع بعد قليل ان نفهم النتائج التي نشأت عنه ، ولنستطيع ان نربط هذه الظواهر كلها بالنفسية العربية . . وعلى كل حال ان هذا التفكير ، بطابعه المادي ونتائجه الدهرية هو طابع العرب في الاساطير العالمية . . فان كان للعرب ميزة ابداعية في الاساطير العالمية فميزتهم ، في الحقيقة ، هي في هذه الناحية الدهرية ، هي في هذا الصراع الدائم بينهم وبين دهرهم المادي . . . صراع ، كما سنرى هذا الآن بصورة تاريخية مفصلة ، من اجل البقاء على قيد الحياة اللذيذة : حياة الاباريق والسرير التي كانوا يحيونها . . . صراع من اجل الخلود المادي . . صراع كانوا دائماً ينهزمون [1] فيه . . .

ولا تظن ان هذه النزعات النفسية نتقولها على الجاهليين العرب . . . فبقايا الادب الجاهلي نفسه تصور لنا هذه النزعات اوضح تصوير ، وكذلك حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية ، فهي تصور هذا ايضاً اوضح تصوير كما سنرى . . . فانت لا تكاد تجد شاعراً جاهلياً الا وقد ضرب على هذا الوتر الدهري الاباحي :

فهذا طرفة يقول :

الا ايهذا الزاجري احضر الوغى   وان اشهد اللذات هل انت مخلدي

ويقول ايضاً في قصيدة ثانية :

تمر علينا ليلة بعد يومها   فلا نحن ما نبقى ولا الدهر ينفد

وهذا النابغة الذبياني يقول :

ولم تلفظ الموتى القبور . . ولم تزل   نجوم السماء ! . ! والاديم صحيح ! !

ويقول ايضاً في قصيدة اخرى :

تكلفني ان افعل الدهر همها   وهل وجدت قبلي على الدهر قادرا ؟!

وهذا حسان بن ثابت في الجاهلية يقول :

واشرب من الخمر ما اتاك شربه   واعلم بان كل عيش صالح فان . .

ويقول ايضاً مستغلاً في الهجاء هذه الصفات الدهرية :

اذا الدهر عفا في تقادم عهده   على عار قوم كان لومك في غد

وهذا سُلمي بن ربيعة — وهو جاهلي من شعراء الحماسة — يقول :

ان شواء ونشوة ،   وخبب البازل الامون ،

-----

(١) — ولذلك كانت القبائل العربية تفرح بنبوغ الشاعر . لانها كانت تراه يستطيع ان يقاوم الدهر ويخلد مفاخرها . ولذلك ايضاً اخذ الرؤساء والامراء يستميلون اليهم الشاعر . بل لذلك اخذ بعض الامراء يلتفتون الى هذا الشعر غير آبهين بما قد يجر عليهم . ثم لهذا السبب ايضاً رأينا بعض العرب يغالون في بعض سجاياهم مثل حاتم الذي يقول : « ان الثراء هو الخلود . » وغير حاتم حتى من الصعاليك الذين تتمثل حياتهم وطموحهم في شعر عروة بن الورد بصورة خاصة . وسنرى ان الاسلام حين يجرب ان يهدم هذه الرموز الجاهلية يقاوم هذه الامور كلها . .

والبيض يرفلن كالدمى   في الريط والمذهب المصون ،
والكثر والخفض آمناً   وشرع المزهر الحنون ،
من لذة العيش . والفتى   للدهر ، والدهر ذو فنون

وهذا حاتم يقول :

ان الثراء هو الخلود وان   المرء يكرب يومه العدم .

وهذا لبيد يقول :

لحا الله هذا الدهر اني رأيته   بصيراً بما ساء ابن آدم مولعا

وهذا زهير بن ابي سلمى ايضاً يقول :

بدا لي ان الناس تفنى نفوسهم   واموالهم ولا ارى الدهر فانيا

ويقول ايضاً في ميميته الشهيرة :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم . . .

والخ . . . من هذه الابيات الدهرية التي ارجوك ان تتأملها ، وان تقف معي قليلا على هذا البيت الاخير الذي ان كان ظاهره تديناً وحكمة ، فباطنه الحاد ودهرية . . . نعم الحاد ودهرية لعل الرواة الذين تخصصوا بنحل الشعر لم ينتبهوا اليها فراحوا يستغلون ظاهر المعنى الحكمي ، ليدسوا في القصيدة اكثر تلك الابيات الحكمية ايضاً ، والتي تبدأ بهذه العاطفة الغريبة عن الادب الجاهلي كله — والتي دسوها ايضاً في شعر لبيد — وهي قولهم :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولاً لا ابالك يسأم . .

لا . . . لا . . . وحرمة التاريخ ، ما كان لزهير ان يقول هذا القول [1] ابداً ، بل هذا القول من صنع الرواة المسلمين الذين كانوا يفضلون الآخرة لانهم (يظنون انهم ملاقو ربهم ، وانهم اليه يرجعون) . . . وهيهات ، هيهات لمن يعيش في الجاهلية ثمانين حولاً ان يسأم العيش . . . بل هيهات لمن يعيش الف حول ان يسأم العيش . . . أسمعت بقصة ذي القرنين مع الخضر ، امهل سمعت باسطورة عين ماء الحياة [2] ، ام هل سمعت باسطورة لقمان ونسوره ؟ ! . . . فهذه يحسن بك ان تطيل التأمل فيها . .

-----

(١) — وما رأيك في قول من رشح نفسه للنبوة آنئذ وهو (امية بن ابي الصلت) الذي قال جزعاً حين حضرته الوفاة :

« كل عيش وان تطاول دهراً   صائر مرة الى ان يزولا . . »
« ليتني كنت قبل ما قد بدا لي   في تلال الجبال ارعى الوعولا . . »

وكيف نطالب من البداة الدهريين الباقين ان لا يقولوا ما قالوا . . او ان يشذ زهير ولبيد عنهم ؟! .

٢) — ظلت اسطورة عين الحياة الى ما بعد الاسلام ، وتجسمت بصورة مشوهة في مفهوم العرب للكيمياء التي قالوا انها العلم الموصل الى معرفة المادة التي تقلب جميع المواد ذهباً . ولكن رغم جميع الجهود التي بذلها القدامى فقد ظل هذا المفهوم حلماً ، لم يتحقق الا الآن في القرن العشرين وعن طريق تحطيم بعض الاليكترونات في الذرة ايضاً . .

وها انا اكتفي الآن بسرد اسطورة لقمان ونسوره. وملخص هذه الاسطورة هو انه بعد ان استجيب الى طلب لقمان بن عاد الذي كان يدعو :

اللهم يا رب البحـار الخضر   والارض ذات النبت بعد القطر
اسألك عمراً فوق كل عمر

جعل عمره عمر سبعة نسور ... وبينما كان ذات يوم في جبل (ابي قبيس) يبحث عن نسوره هذه سمع منادياً يقول له :«يالقمان ابن عاد المغرور ببقاء النسور ، اطلع راس (ثبير) ليس يعدو قدرك المقدور .» فطلع راس (ثبير) فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما ، فاختار احد الفرخين ، ثم عقد في رجله سيراً ليعرفه وسماه (المصون) ثم قال :« المصون الخالص المكنون ، من بيت المصون ، ومحظور السنون ، وعبل العيون ، والباقي بعد الحصون ، الى آخر الدهر الخؤون .» فكان لا يغفل عن اطعامه حتى تم طائراً ثم. . ادركه الكبر. . . وضعف. . و . . مات. . فجزع عليه لقمان جزعاً شديداً وقال : « هذا بلاء. . » ووقعت الواقعة مثل ذلك مع كل نسر مثله : (عوض) و (خلف) و (مغيب) و (يسرة) و (انسا) الى ان جاء دور السابع (لبد) —ولبد لغةً : الدهر — فلما دنا اجل لقمان اراد (لبد) ان ينهض فلم يطق. . فجاءه لقمان فزعاً ، واخذ يبكي وقال له :« انهض لبد فانت الابد لا تقطع بي الاسد. » فلم يطق لبد النهوض ، وتفسخ ريشه و. . مات. . ثم جاء لقمان ليقوم ، فاضطربت عروقه ، وخرَّ ميتاً. . .

فهذا اذن هو ملخص اسطورة لقمان. ولا يخفى علينا فيها — ولو انها قد لعبت بها ايدي القصاص والشعراء المسلمين — ذلك الايحاء الذي تحمله اسماء الجبـال مثل (ابي قبيس) و (ثبير) او اسماء النسور مثل (مصون) او (لبد). . . وكلها ترمز الدهر. ولكن نحن لم نسق هذه الاسطورة هنا لاظهار هذا الايحاء ، بل سقناها لايضاح النزعات الدهرية في نفسية العرب القدامى. . ولا بأس ايضاً من ان اسوق هنا ادلة اجتماعية ، وسياسية ، ودينية اخرى في سبيل الغاية ذاتها ، فاقول : قل لي يا صديقي القارىء ، الست تعجب ، كما قد كنت اعجب ، حين تجد الشعراء في بقايا الادب الجاهلي ، كالنابغة وزهير والحارث والقطامي مثلا ، تجدهم يقفون في وجه قومهم يحولون بينهم وبين الحرب؟!. . صدقني اني انا كنت اعجب لهذا. كيف لا ، والصورة التي انصبت في اذهاننا عن العرب القدامى ليست الا هذا السيف الذي لا يعرف القرار في غمده ، او بالاحرى ليست الا هذه الدماء المهراقة ، وليست الا صورة عنترة الذي خلقه الروائيون المسلمون بالطبع — وصورة ابي زيد والملك سيف وهكذا.

لا يا صديقي ، لقد كان البدو احرص على الحياة مما نظن ولذلك امسى من الفخر عندهم ان يقول المرء انه لا يحرص على الحياة. . نعم ، ومن ينكر انه قد كان من بين قوانين البدو وجوب حدوث الغزو والسلب من غير اراقة الدماء ، هذه الاراقة الرهيبة البغيضة (١) الى نفوسهم؟!! ثم من ينكر ان القبائل كانت آنئذ ترغم على دخول الحرب — اقول الحرب لا الغزو — ارغامـاً ، وانها كانت تدخلها يائسة عندما تجد انه لا بد من دخولهـا؟!!. . ثم من يفكر ان هذه الحروب ان هي في الحقيقة الا غزوات متقطعة

---

(١) — اذا نحن دققنا في (رمزية الالوان) في الادب الجاهلي — وهو ادب الفطرة — وجدنا ان الجاهلي يقدس « اللون الاحمر » ، حتى انه — واظن ان هذا من آثار الطوطمية — لا يستطيع ان يعطيك فكرة عنه. وهو حين يقول احمر يقصد احمر وابيض واخضر واشقر كما جاء في تـاج العروس ، وكذلك ، كما سنرى هذا في مرة ثانية ، اللون نفسه في نظره لون مقدس عجيب ، مقرون في ذهنه بلون الاشياء الرهيبة من جهة والجميلة الشعرية من جهة ثانية : فهو لون الشمس في غروبها وشروقها ، وهو لون الدماء التي تحيي وتميت ، وهو لون الخمرة التي تذهله عن وجوده ، وهو لون بعض الحيوانات التي لها صلة بالجن. . . واظن اننا بهذه العقلية نستطيع ان نفهم قول الرسول العربي :« خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء . » وهو يقصد سيدتنا عائشة ، ويعني « خذوا نصف دينكم عن هذه الفتاة العجيبة. . . » لا « عن هذه الفتاة البيضاء. . . » كما جاء في تاج العروس وسنرجع الى هذا ان شاء الله في عدد مقبل. . .

تطول وتقصر حسب نفسية القبيلة ، وحسب الربح والخسارة الناشئين عن هذه الغزوات؟!.. ثم من ينكر ان هنالك رغم هذا كله فصولاً خاصة بهذه الحروب والغزوات، وان هنالك فصولاً اخرى تحرم فيها هذه الحروب كلها، فيطمئن المرء ، ويلتفت الى خلوده المادي ، فيتاجر ، ويزور بالمناسبة صنمه في الكعبة ، وهو في هذه الزيارة نفسها يرتدي الثياب الجديدة ، ويتطيب ويستمتع بالملذات الحسية ، الا الحمس ، وهم قلائل ومنهم قريش؟! .. نعم لم يكن هنالك شيء يؤلم الجاهل اكثر من الموت.. ولذلك اصبح للموت آله من آلهتهم يتمثل في (مناة) — ومناة تحريف للفظ « مامناتو » (Mamnatu) آله القدر والموت عند البابليين — هذا الصنم الذي كانت قبائل الاوس والخزرج تقدسه كثيراً ، كما كانت قريش تقدس (هبلا) او (بعلا) كما جاء في القرآن، ومن السهل ان نعلل هذا بما نعرف من مشاحنات الاوس والخزرج مع اليهود في يثرب والطائف ، وبما نعرف من حب القرشيين للربح والتجارة — وهبل او (بعل) (Bel) هو آله الخصب[1] عندهم وعند البابليين ايضاً.

فكل هذا اذن يدفعنا الى القول ان البقاء على قيد الحياة ، او الخلود المادي كان امل العربي الجاهلي ، بل « مثله الاعلى »[2] كما يقول محمد عبد المعيد خان.

فهذه اذن نفسية العرب الجاهليين، وهذه هي العقدة التي تجتمع عندها سائر النزعات في تلك النفسية ... وقد يقول لك من يظن ان التاريخ قوالب مصبوبة: « وكيف تفسر الفتوحات العربية الاسلامية ، ام كيف تفسر اقدام الابطال العرب في اليرموك والقادسية وصفين ، وكيف . وكيف . » وجوابي على هذا بسيط قصير بقدر ما هو معقد وطويل .. نعم الجواب بسيط قصير حين اقول ان هذا كان من اثر الاسلام ... وهو معقد حين اجرب ان افصل القول فيما جاء به الاسلام ليبدل في رموز تلك النفسية الدهرية.. وهذا يحتاج الى كلام طويل سنرجع اليه ان شاء الله في عدد مقبل ... وعلى كل حال لا بأس من ان نقول الآن، كتتمة لهذه الصورة النفسية العربية ان الاسلام حين جرّب ان يحطم رموز الجاهلية بدأ بايجاد (عالم السر)، وذلك بتوحيد الآلهة — ونحن نعلم كم لاقى هذا التوحيد من معارضة — ثم بايجاد العرش والكرسي والملائكة والشياطين والجنة والنار..

(١) – راجع (الاساطير العربية قبل الاسلام) من ص ١١٤ الى ص ١١٦

(٢) – يذهب صاحب (فجر الاسلام) الى ان العربي المحدود الخيال لم يعرف « المثل الاعلى »...

ثم — وهنا الامر الرئيسي — بتزيين هذه الجنة وهذه النار ، وبوصفها بهذه الصفة التي كان الجاهلي يقدرها حق قدرها : وهي الخلود. فالكافر خالد في النار ، والمؤمن خالد في الجنة ، وخلود الاول بين ما لم يخطر على قلب بشر من انواع الاهوال والآلام التي يفر منها في الدنيا ، وخلود الثاني بين مالم يخطر على قلب بشر من الملذات[1] التي يحرص عليها في الدنيا ... وهذه الصفات ، ولا سيما صفة اللذة في الجنان ، لا نجدها في المسيحية التي تبشر بلذة مثالية لا يفهم كنهها الا الصوفية امثال الغزالي والحلاج ، ولا في اليهودية التي لم تتعرض قط الى وصف الحياة الثانية.. وبهذا كله استطاع الاسلام ان يؤثر في تلك النفوس الدهرية المادية ، وبهذا استطاع ان يوجهها لخدمة « مثله الاعلى » ونشره والدفاع عنه... ولا يفوتني الآن قبل ان ارمي القلم من يدي ، ان اقول، ان المسلمين حين عزموا على الفتح[2] خرجوا وصوت (ابي بكر) يدوي في اعماقهم: « لا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجره مثمرة ، ولا تذبحوا شاه ولا بقرة.. وسوف تمرّون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم.. الخ.. الخ.. » فخرجوا ، وحاربوا، وجنوا النصر بعد النصر، ولكنهم لم ينسوا نصيحة[3] هذا الخليفة العظيم. وآنئذ ، وآنئذ وحده، سمعنا الدهر، وقد انهزم امام هؤلاء (البداة المؤمنين) سمعناه يقول — ويا صدق ما يقول — « لم يعرف التاريخ فاتحاً ارحم من العرب... »

القاهرة — عدنان الذهبي

(١) – يتساءل كثير من المستشرقين عن امكانية اعتبار هذا الوصف الحسي للذة في الجنان وصفاً رمزياً ، كالوصف الحسي الذي نجده في نشيد الانشاد للنبي سليمان ، والذي يؤوله كثير من العلماء بامور دينية اوفلسفية بالرغم من ان هنالك ايضا علماء لم يقبلوا بهذا التأويل.. . والحقيقة ان الوصف هنا وصف حقيقي يراد منه ظاهر معناه.. . وهذا لا يفيد.. بل نحن نجد الى جانب هذه الصورة الحسية للذة في الجنان صورة صوفية. تمهر كثيرا من الآيات. وهذا لا يخفى.

(٢) – ومن الثابت تاريخياً ان جميع الظروف السياسية الخارجية والداخلية كانت تمهد لهذا الفتح..

(٣) – يقول احد شعراء الحماسة ، وهو رجل من بني عقيل:

(ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالي)

وهذا القول هو ، في الحقيقة، خير ما نستشهد به على خصائص هذه النفسية العربية، سواء في جاهليتها ، وقد رايناها عن طريق الاساطير ، بعد ان ترغم على المقاتلة واراقة الدماء ارغاماً تنزل الى ساحة الوغى غير مبالية يائسة. . او بعد الاسلام ، وسنراها تحمل هذا الطابع النفسي ذاته، مع هذا الاختلاف الرئيسي في نظرتها الجديدة الى (الموت) ، هذا الموت الذي منذ ذلك الحين قد حبب الى نفوس العرب...

طاهرة

☆

في كل ثانية وفي كل ردة طرف
تتمثل لعيني هذه المرأة
وكلها حياء وكلها جمال

أين منـاك البيض منشورة ... يرفهـا الحسن بأندائـه
أين مدى عينك مخمورة ... تعثرت كالحائر التائـه
ودمعك الرقراق يبغي الهدى ... ان يغسل الذنوب من مائه
من قال لا يقتل هذا التقى ... فانه اكـبر أعدائه
قد عميت عيناه « من جهله» ... عن حسنك الزاهي ولألائه

***

ومن تعري الحسن من طهره ... يرفضها من بين أسمـائه
جميـلة انت وقد طوقت ... جنـاك بالحسن وآلائه
ومهد الدرب لكي تعبري ... وتأخذي العرش بأجوائه
لقد سما عرش الجمال الذي ... يدعمـه الحب بنعمائه

***

أعجب من شخص تمنى الهوى ... وراح طوافـاً بأرجائـه
وقال لم أحظ بمنشودتي ... ولفني اليأس ببلوائـه
وأنت في دنيـاه اغرودة ... أضافهـا العمر لاصدائه

☆

عـذراء

☆

لا تهربي يا أخت لا تهربي ... فلست أرجو منك من مأرب
ولم يطاوعني الخيـال الذي ... يلهو ببرد العفـة الطيب
ملأت دنياي وفي خاطري ... شهوة أفاق ونجوى نبي !!

***

هفة عينيك انفلات الرؤى ... هائمة تبحث عن مطلب
تمتلـك اللذة أحلامهـا ... فترتمي في حضنها تختبي !
تروي لك الاوهام اسطورة ... من شاردات الفكر الخيب

***

ما بال هذا العوم المنتشي ... زهواً ينادي رغبتي قربي! ؟
وامتلكي صدراً كأن اللظى ... عمّره بجره المرعب :
يوقد في نفسي احاسيسها ... حتى أرى كالرجل المذنب
عذراء في عينيك ما رابني ... فاحترمي شفاعة الحب بي
ان الذي اختصك في حسنه ... عمّر فكوي بالهوى المخصب
فـلا أرى الاك محبوبة ... سكرانة بحلمها المذهب

اللاذقية ... محمد عباس
من اصحاب القيثارة

من المساء الاخير

مجد في غسق

بقلم يوسف الشاروني
ليسانسيه في الآداب

☆

وعدت الى الجبل المقدس ، وتوقع الدهشة والغربة يؤزني توجساً فقد اخترت السير في طريق جديد لم تدسه من قبل قدماي حتى لكأن احداً لم يطرقه، لكنني كنت اكثر دهشة حين رأيتني لا اجد مشقة في التعرف على منحنيات الطريق وشعابه وامتداداته . . . حتى وصلت الى سفح كأنما آلف منظره، رغم انه لا يمكن ان يكون احد — لا انا ولا غيري — قد تطلع منه الى القمة او ارتاده من قبل . اما الظلام فكان ثقيلاً كاتماً لا بد ان يتوقع الحي ان تخرج منه اشباح وارواح، فوقفت انتظر . . .

ورأيتكِ تقبلين من ناحية الغروب ، تنهزم العتمة امامك بغير ان تبدو اضواء ، يقودك نعشي محملاً على اجنحة من ظلام . وكان جسدك عرياناً ، وخطواتك متزنة ، والنعش يتجه نحو القمة في استقامة وسكون ، حتى اذا ما اقتربتما منها ، وقف النعش وارتاح على التراب . وكأنما كان الليل مليئاً بجماهير واشباح جماهير ترقب ما تفعلين ، وتنتظر ظهورها حالما تنتهين . ورأيتكِ تمسكين معولاً كنت قد اعطيته لك ايام حبنا واخذت تحفرين . . ثم تحركت اجنحة الظلام حتى رفعت نعشي قليلاً ثم ارقدته فيما حفرته يداك وانت تهيلين التراب .

وكانت ثمة بحيرة من الدم الى جانبك كبيرة ومتسعة جداً ، فقفزت اليها بجسدك العريان ، تغتسلين مما علق بك من التراب . وفجأة لمحت دوامة تنبثق من الجانب البعيد في البحيرة ، تحمل وجهي وهو يدور معها في عنف . ثم اخذت تقترب منكِ وتقترب في سرعة وجنون ، حتى وضحت لك معالم الوجه وهو يكاد يملأ الدوامة ، والدوامة تكاد تملأ البحيرة ، ورشاش الدم يتناثر اسود في العتمة . وبدا لك الوجه من خلال البحيرة والدم ، معروقاً ومجهداً ، والشفتان مضمومتين في شدة وكأنهما تحرقتا ، وثمة عين واحدة تنظر نحوك في فزع وعتاب ، بينما العين الاخرى لم يكن لها وجود ، وثمة ثنيات من الالم قد ارتسمت بين الحاجبين وهما ممزقتان في قسوة . وازعجك ان ترى العين الفزعة تلاحقك في اصرار وبلا حياة اينما نظرت ، وان تلمحي وجهك انت يكاد يختلط بهذا الوجه المشوه في هذه الدوامة الدموية التي كانت تدور وتدور حتى لتكاد تبتلعك . فقفزتِ على الشاطىء وجلى خائفة ، وانت تحسين الدوار ، والدوامة لا تزال تدور ، وعيني لا تزال تلاحقك وهي غارقة في الدم . فأسرعت الى الارض تقبضين حفنة من الرمال والتراب وتنثرينها على سطح البحيرة ، بينما كانت ثمة دوائر في البحيرة تنداح من حيث خرجت ثم تتسع وتتسع حتى لتغيب . فعدت تنثرين التراب حتى استحال الى وحل غارق في الدم .

ولما احسست بعض الطمأنينة ، رأيتك تتحركين ، في بطء وتردد اول الامر ، لكن سرعان ما اخذت خطواتك تتلاحق حتى استحالت الى رقصة بلا ايقاع ولا انتظام . وكنت تقطعين في جنون مكان البحيرة جيئة وذهاباً وتدوسين فوق قبري فيثور الغبار ، واصوات صدام خافتة تنبعث في المكان ، يتهدل شعرك وتهتز اطراف اطرافك وجسدك اللدن الحي يتثنى ، ودوائر الظلام تنهزم . . كأنما انت ساحر قد اغلق لتوه ابواب الجحيم . وحين وقفت فوق القمة تملأين رئتيك ، كانت قدماك ملوثتين بالوحل والدم ، وكانت العتمة زالت لكن لم تكن ثمة اضواء فسبح الوجود في الغسق .

واخذ يفد على مكان البحيرة افراد عراة مثلك ، كانوا يقبلون من كل ناحية بعدما انتهى النهار وحل بهم التعب وانت واقفة ترقبين . حتى اذا ما اجتمع شملهم وصاروا جمعاً غفيراً تسري فيهم همهمات كالمياه ، وقفتِ بينهم ، فبدوا امامك كانهم حشد من الظلال ، حتى رأوك فصمت الجميع . . .

وبدأ صوتك في الغسق عالياً ومجلجلاً حتى لكأنك وحدك ، وعيونهم جميعاً نحوك وشعرك الاسود المسترسل الى ما بعد الرقبة بقليل يثب على الكتفين العاريتين . كانت شفتاك تتحركان في تلاحق وبغير انتظام ، ووجهك يلتمع ببريق الطموح والثورة ، والثنيات التي كانت ترتسم حول فمك وعينيك من حين لآخر وسريعاً تزول ، المح فيها ما عبّرت عنه ذات يوم من حب وقلق وخطر وألم . ويدك اليمنى التي كنت تشيرين بسبابتها حيناً وبأصابعها الخمسة حيناً آخر ، لا تزال تحمل آثار ما حملت من

معاول وفؤوس كنت في المدينة تحطمين بها اصنام اجيال وقرون . وبشرتك الممتزجة بأضواء الغسق ناعمة جداً . وقدماك راسختان في الارض ، مشدودتان الى فخذيك المستديرتين وقامتك الممشوقة الممتلئة ، بيناهما ترتفع قليلاً من حين لآخر ثم تعودين تضربين بها الأرض في اتساق مع حركة اليد وتعبير في الوجه وصرخة داوية ، وصوتك لا يزال مجلجلاً اسمع في اصداء جرسه ما قلته لي ذات يوم بخفوت شديد ، احبك منذ رأيتك . وضوء الغسق ينبعث من شعرك ومن عينيك ومن بشرتك العارية الصافية .

كان وجهك رائعاً ونبيلاً ، وانتِ تلمحين امامك عيوناً ظامئة ورؤوساً متطلعة فيزداد ايمانك وجمالك ، حتى استحلت امامهم الى شعر ينهدل واطراف تتحرك وصوت ساحر مغمور في هالة من نور حالم مقدس ، وآمنوا جميعهم انك تستطيعين ان تخطبي فيهم ساعات بل اياماً ، وهذه الثروة الجبارة من الكلمات تنطلق من فمك . ولم تعودي امامهم شيئاً انسانياً ، بل بطولة ومجداً .

لكن لم يكن هذا هو كل شيء ، فقد كنت تحسين ان ثمة شيئاً ينتشر الآن ، في اعماقك ويسيطر عليك قليلاً قليلاً حتى ليوجه كلماتك . وابرق في عينيك لحظة حلم نفسي حين اندفعتِ تقولين : ليس لدينا وقت للتعلق بأوهام الماضي . . فدوى الجميع بالتصفيق ، ذلك ان كلاً منهم كان يريد التخلص من أوهام في ماضيه ، وهنا انبعث فحيح وراء اذنيك يقول : لقد تسممت حياته ، لقد تسممت حياته . فعدت تصيحين : ولن يكون امامكم وقت للبكاء على حب فأمامنا كفاح مرير . وانبعث الفحيح مرة اخرى يقول : لقد استحال الى مجنون امام نفسه وامام الناس ، لقد استحال الى شريد . وهنا ارتفع صياحك عما ذي قبل وانت تلمحين عريك وعريهم وتهتفين : ليس لدينا وقت للتعلق بالاباطيل فنحن نريد خبزنا وكساءنا . وانبعث وجودي العالق بك يفحّ من داخلك هذه المرة ، ويصيح : لقد تركتِ جثته هناك ، لقد تركتِ جثته هناك . بينما اخذ الجميع يصفقون وانت تبحثين عني عساني اكون انتشرت بينهم : هل اسمعك ، هل أراك ، اما شهدت مجدك هذا كله في الغسق ؟

ولقد كنت ادرك انني اراك في هذا الموقف لاول مرة ، ومع هذا فقد كنت احس انني آلفه كما يألف الظل النور . كنت قد رايته من قبل وانت لا تزالين رغبة في فؤادي ، ثم رايته فيك حين قابلتك وكنت لا تزالين صمتاً مستبهماً ، وها انا اراه اليوم وانت فوق القمة بعد ما طمرت جثتي من حياتك واغتسلت في بحيرة الدم .

اما انانيّتي القاسية المتشبثة بك فكانت تقول : انها تحبك اليوم اعنف من اي وقت مضى ، فقد كانت تخطبهم كلمات لقنتها اصولها . لقد علمتها كيف تهرب من الماضي اما انت فلم تتعلم . لقد عرفتها طريق المجد اما انت فما عرفت مجدك الا فيها .

وعدت احاول الاقتراب منك ، حين لاحظت الوجود ينحدر نحو العدم في كل خطوة اخطوها ، حتى اذا ما خيل اليّ انك لمحتني رايتك تشحبين . . . ومن قبل انا الذي اقتربت وعرفت ضعفك ، ورأيت اليوم مجدك — كما رآه الآخرون — في هالة من بعيد . فعلمت انني لو عدت اقترب فسيضؤل كل شيء حتى لتحدث الخيبة الهائلة مرة اخرى من جديد . لهذا ظللت في مكاني واقفاً . . ومن قبل كنت قد اوصيتك ان تقتربي دائماً ، دائماً مهما يكن المصير !

وكانت الجموع تنصرف واحداً في اثر واحد ، واقدامهم ملوثة ببقايا الوحل والدم ، حتى بقيت وحدك تفكرين . . كنت تعلمين انني اتقلقل الآن في الظلام ، وكنت فخورة لانك تألمت ذات يوم لتألمي !

ورأيتك ترفعين عينيك حيث قام نصب فوق مقبرتي تقرأين عليه هذه الكلمات : مات في المساء الاخير من . . . وخيل اليكِ انك تسمعين اصوات جماهير وهدير مياه . فادرتِ عينيك نحو بحيرة الدم ودوائرها المتجمدة حيث لمحت جمعاً غفيراً افراده متشابهون متجانسون ولا نهاية لهم ، كل منهم يشبه ذلك الانسان الذي دفنته يداك انت منذ زمن بعيد .

وخيّل اليكِ ان الارض ستنشق عن البحيرة حتى تفيض وتغرق المكان . فلم تحبي كثيراً هذا اللون من التوهم والجلوس وحدك ، وقد كان ثمة آخرون غرباء عني يشغلونك الآن ، كما ذكرت هؤلاء العريانين الذين سيفدون على مكان البحيرة والدم عند حلول كل غسق ، تخطبين فيهم عن التخلص من الماضي واوهام الماضي حتى يدوّي الوجود لكِ بالتصفيق .

ولمحت آثار اقدامهم فذهبتِ نحوهم تهرولين دون ان تلمحيني . . . فأنا قد كنت تلاشيت في الغسق .

القاهرة　　　يوسف الشاروني

الثقافة التي نريدها

بقلم قدري قلعجي

ان من يراقب شبابنا يلمس القلق والحيرة في حياته وتفكيره، فهو يتطلع الى آفاق جديدة، لكنه لا يستطيع تحديد هذه الآفاق وتعريفها. وهو يستشعر الشوق الى المثل العليا، لكن هذه المثل ماتزال في ذهنه شبه بالتهاويل الغامضة. واذا ما اتيح لهذا الشباب ان يعرف حقيقة الآفاق التي ينشدها والمثل التي يحلم بها، فكثيراً ما يجهل طريق الوصول اليها.

واكبر الظن ان مبعث هذا القلق، هو الفراغ العقلي الذي يشوب حياتنا العامة، واضطراب التفكير الذي ما يزال مختلطاً لدنيا لم تتحدد معالمه ولم تقم على اسس صحيحة.

فشبابنا يرى المعرفة تتسع في المجتمعات المتمدنة فيعظم اثرها ويكبر خطرها، ويدرك ان شعبنا لا يستطيع البقاء والارتقاء، الا اذا جارى هذه المجتمعات في اساليب المعرفة. وهو لذلك يريد أن يعرف ليعمل، لكنه ما يلبث ان يرى نفسه حائراً موزعاً، ليس بينه وحدة في الرأي والعقيدة، وليس امامه هدف عظيم موحد، وليس تفكيره الا مزيجاً غريباً تساهمت صنعه عشرات من المعاهدة العلمية.

فاعظم ما ينقص شبابنا اذن، نظام تعليمي تهذيبي تقدمي موحد، يربي الجيل الطالع تربية قومية قوية، ويتعهد شعوره الوطني ويوجهه توجيهاً صحيحاً، وينمي شخصيته بتعويده التفكير الحر.

الا ان نشر المعرفة الصحيحة، لا يقتصر على زيادة عدد المدارس والمعاهد، ولا على تطوير برامج التعليم وتوحيدها، بل يقتضي السعي لجعل الروح العلمية اساساً لحياتنا الاجتماعية. وليس القلق الذي يستشعره شبابنا الا صدى لهذه الحاجة الملحة. على ان هذا الشعور نفسه، دليل على قوة الحياة في شعبنا، وعلى نزوعه الى حياة اكمل.

ان الثقافة شرط لازم لجميع نواحي نهضتنا القومية، السياسية والاقتصادية، الرامية الى خلق كيان اجتماعي سليم وبناء امة منسجمة صحيحة التكوين. واذا كانت الانتصارات السياسية والاصلاحات الاقتصادية، شروطاً اساسية لتحقيق تلك النهضة المرجوة، فان الثقافة شرط لنجاحها وغاية لها ايضاً.

فليس النضال السياسي في امة من الامم الا وسيلة لاعطائها نظاماً صالحاً عادلا، وليس هذا النظام بدوره غاية في ذاته، بل هو وسيلة لان نكفل لهذه الامة حقها في النمو والتطور، بعدل وحرية، حتى تبلغ مدى أوسع واعلى من الحياة المليئة القائمة على اسباب المعرفة.

وليس النضال الاقتصادي في مجتمع من المجتمعات، الا وسيلة لتذليل الصعاب المادية امام افراد هذا المجتمع، لا لان هذه الشؤون المادية غاية في ذاتها، بل لكي يستطيع الانسان حين يتحرر منها، ان يستخدم جميع كفاياته ومواهبه.

اما الثقافة، او المعرفة على الاصح، فهي، بخلاف اشكال الحياة السياسية والاقتصادية، وسيلة وغاية في آن واحد.

انها وسيلة لان النهضة المنشودة في بلد من البلدان، لا يمكن ان تبلغ غايتها وتؤدي رسالتها، الا بتنمية الروح العلمية لدى قادة ذلك البلد ولدى جماهيره العامة، كي يكون اولئك على علم بالتاريخ والمجتمع والطبيعة وكي يكون هؤلاء على بصر بقيمة العلم فيؤمنوا بحلوله ويثقوا بها ويسكنوا اليها.

وهي غاية لان النهضة القومية والاجتماعية، ليست بحد ذاتها الا سبيلاً لتنمية مواهب الانسان، وغرس صفات الرجولة فيه — الحرية والفضيلة والثقة بالنفس — وفسح المجال لقواه الكامنة لتظهر وتبدع.

فحينا يحارب المفكر الصعاب المادية، فهو انما يحارب العقبات التي تحول دون نمو الفكر. وحينا يحارب الظلم السياسي او الاجتماعي فهو انما يحارب الظلام الذي يطمس نور الفكر. واذا كان المفكر لا يستطيع ان يقف موقف الحياد من الصراع السياسي والاجتماعي فذلك لان الفكر هو الذي يأبى هذا الجمود اذ تضطهد الحقيقة وهي غايته، والحرية وهي قوامه، والانسانية وهي الصفة الاساسية من صفاته.

ولهذا فان اول ما نريده من رجال العلم والثقافة في بلادنا، ان لا تكون تعاليمهم مجرد نظريات جامدة ومعلومات يتراكم بعضها فوق بعض دونما غاية، بل ان يسطع في تعاليمهم هذا النور الهادي، نور الفكر، الذي يرينا علائق الاشياء بعضها ببعض واثر كل منها في تطور الانسان وتقدمه، ويرشدنا الى الطريق التي تسلكها تلك الاشياء، والتي يجب ان نسلكها نحن في اتصالنا بها ونضالنا لبلوغ المستوى الرفيع الذي نريده لانفسنا وامتنا.

قدري قلعجي

وسائل البعث العربي

بقلم عبد اللطيف شرارة

☆



لا بدّ * لنا قبل ان نوضح المناهج التي ينبغي انتهاجها لبعث الروح العربية، من تفسير البعث، وادراك ما تنطوي عليه هاتان الكلمتان في مفهوميهما، من أغراض وصور، ولا سبيل الى تبديد الابهام السائد في الاذهان حول ذلك المفهوم الا بهذه الطريقة.

رأينا ان غاية العرب من الحياة هي تحقيق الطمأنينة الروحية على أديم الارض كلها . ورأينا ان تلك الطمأنينة لا تقوم ولا تتركز الا في جوّ من النضال المثالي لبلوغ أعلى درجات المروءة، فالبعث العربي يعني في جانب : توجيه الامة العربية نحو ذلك النضال ، وتمكينها من تحقيق غايتها الانسانية في الجانب الآخر .

ولما كانت الامة واقعاً اجتماعياً، لا مجال فيه للنقاش والفلسفة ، وجب على كل من يفكر في خدمة امته وإنهاضها ان يتقيد بواقعها من جهة، وواقع العصر الذي تعيش فيه من جهة ثانية، ليُفضي به التفكير الى نظرات صائبة : اي ممكنة وواضحة ودقيقة .

معنى امكانها ان يصح تطبيقها ، او ان يصح العمل من جانب الافراد على تطبيقها فلا تشتطّ في مثاليتها، ولا تخالف في اتجاهها روح العصر الذي تنشأ فيه . ومعنى وضوحها ان تكون ذات طبيعة مرنة قوية بحيث يتاح لأفراد الامة جميعاً ان يفهموها ويتأثروا بها ويعملوا بها كلٌّ حسب طاقته ووسائله، من اعظم فيلسوف الى أبسط عامل، ومعنى دقتها ان لا تخالف التجارب التي توحيها الى الذهن تجارب الامة في ماضيها المجيد .

* من كتاب « روح العروبة» المعدّ للطبع

أول ما ينبغي ان تتوجه اليه جهود الافراد والجماعات العربية هو : ايقاظ فكرة « الامة » بمعناها العربي في كل قطر ، وفي كل مدينة ، وفي كل قرية ، وفي كل اسرة حتى يصبح العربي كفرد واقفاً من نفسه ومن حياته موقف السيد من عبيده، اي يستخدمها استخداماً واعياً عميقاً نيّراً لبناء شيء عظيم ذي أثر عظيم يمتد في مجال تاريخ عظيم .

هذا الشعور بالامة يخلق فيه المطامح العالية، ويفتح له الآفاق المجهولة فلا يلبث ان تتغير امامه صورة الحياة، وتتزن في ذهنه مقاييسها ، وترتفع هي في نظره ، ويرفع هو اليها نظره، ولا يبذّر بعد ذلك نشاطه في شؤون تافهة مضرة ، ولا يقضي ايامه في دوران عقيم ممل حول نفسه وحياته دون ان يفيدهما، او يفيد غيره منهما. هذا في الدرجة الاولى .

وشعور العربي بأمته في الدرجة الثانية يوقظ فيه خاصة ، ذلك النوع من «الشهامة» التي لا نشهدها عند غيره من ابناء الامم الباقية، وشهامته تهزه هزاً عنيفاً الى احتمال التبعات ، والتمرس بالصعاب، والجهاد من اجل راحة الضمير ، حتى اذا أحسّ برد فعل لما يجيش في نفسه من معان سامية ، ولما يداعب خياله من صور مغرية اقدم وأقدم ، فلا يقف في طريقه وازع من شهوة ، ولا عائق من سلطة .

وسبيل العمل على ايقاظ هذا الشعور ميسور في كل ما تقع عليه العين وتناله اليد : في البيت، في المدرسة، في الصحافة، في السينما ، في الاذاعة ، في النوادي، وفي المجتمعات العامة والخاصة . وليس اسهل منه ان يفهم العراقي مثلاً قيمة جهوده — جليلة كانت او دقيقة — في نفس اليمني وان يدرك المصري اثر اعماله في حياة السوري واللبناني ، وهكذا دواليك في سائر البلدان العربية .

ومتى نشأ ابن الحجاز وفي قلبه تعلق بابن مراكش ، ونشأ ابن مراكش وفي اعماقه تطلع الى آفاق لبنان ، ونشأ اللبناني على ان كل ناطق بالضاد اخوه في الوطن واللغة والتاريخ ، وكذا الامر مع كل عربي في كل بلدة عربية يصبح معنى الامة شيئاً محسوساً ذا روعة وجمال وفائدة يكفي ان يتأمل العربي جماله وجلاله، وان ينعم بفائدته، ليضحي بالغالي والنفيس من اجله، وليبذل كل ما لديه لصيانته وحفظه.

وعلى المربين من العرب خاصة ان يتعهدوا هذه الناحية، وان يثبتوها في العقول والقلوب حتى ينهدم كل فاصل بين عربي وعربي .

وعلى النساء العربيات عامة ان يتجندن لخوض هذه المعركة، فانهن يستطعن في هذا المضمار ما لا يستطيعه الرجال ، واذا كان العربي قد خسر معنى الامة ، فلأن امه أضاعته من قبله ! .

ازاء فكرة « الامة العربية» يجب ان تنهض جهود جبارة متعاونة قصدها احياء اللغة العربيه في الاذهان والقلوب . ولا اقصد باحياء اللغة ذلك النمط من الجهد الذي يهدف الى تعزيزها وتفضيلها وانكار غيرها كما يحسب بعض القوميين، ولا الى توجيه الناس نحو المعاجم اللغوية وتأليف الكتب المختصة بهذه

الناحية كما يظن بعض المؤلفين ، ولا الى تجديد الحروف والالفاظ كما يذهب بعض المتحذلقين ، وانما يكون إحياء العربية باعادة المعاني والمفهومات الروحية القديمة الى حياة الشعب وطرائق تفكيره ، ثم ربط تلك المعاني والمفهومات بالعصر الحديث وحياته وطرائق تفكيره ، فقد تطرق الوهن الى معظم الكلمات الحية الغنية في لسان العرب ، وضاعت المعاني على بعضها واضطربت الافكار في تصورها وتصويرها ، حتى لم يبق للبيان العربي ذلك السحر في نفوس الشعب ، ولم يبق للبلاغة ذلك الوقع في قلوبه ، فلا من يهتم باللغة ولا من يفكر في فائدتها الروحية ، وقيمتها الفلسفية والقومية .

اللغة ليست كلماتٍ فحسب ، ولا هي آلة تفاهم وتخاطب وكفى . . . وانما هي تاريخ نائم توقظه كلمةٌ بعينها ، ولا توقظه كلمة غيرها من الألفاظ الاخرى ، وذلك ينطبق على لغة العرب اكثر مما ينطبق على اللغات الباقيه . . .

لهذا ، كان إحياء العربية يعني احياء الخصائص الادبية والفنية والبيانية التي امتاز بها العرب في اشعارهم وامثالهم وخطبهم وحكم الحكماء منهم ، حتى ليكون مجردُ معرفة اللغة ، بلهَ اتقانها ، ثقافةً كاملةً تعين المرء على فهم الحياة والناس فهماً قريباً من الحقيقة ان لم يكن الحقيقة بذاتها ، وتلك هي حال الأعراب والعرب في بادىء الأمر ، اذ عاشوا اميّين ولكنهم كانوا مثقفين لما تزودهم به لغتهم من معرفة ، وتكشف لهم من آفاق وتوحي اليهم من عبر .

يجب ان يعاد النظر في التاريخ العربي من جديد ، وفي آدابهم واساطيرهم ومخلفاتهم العمرانية . يجب ان ينقب عن الكتب العربية المفقودة في جميع بلاد العالم ، وعن الآثار المندرسة في بقاع الجزيرة وبواديها ، في تدمر وانقاضها ، في العراق ومدائنه ، في اسبانيا ، في شمال افريقيا كله ، في كل ارضٍ وطأها العرب الأقدمون ، لترجع الى العربية حياتها الصحيحة التي عاشتها من قبل .

لقد قام نفرٌ من المستشرقين بهذه الأبحاث والدراسات فوفقوا الى اكتشافات عظيمة قيمة رفعت بعض الحجب والقت بعض النور ، بيد ان العرب انفسهم لم يؤدوا شيئاً من هذا الواجب ، وليست الثكلى كالمستأجرة !!

والى جانب احياء اللغة العربية ، ينبغي ان تقوم حركة مماثلة تحاول ما امكنتها المحاولة « تعريب » المدنية الراهنة تعريباً تاماً شاملاً عاماً ، بمعنى ان لا تجري تجربة علمية في بلدٍ من بلاد الأرض الا ويطلع عليها العرب بلغتهم ، ولا ينشر كتاب قيم من الكتب اياً كان موضوعه ولسانه الا وينشر بلغة العرب ، حتى يصبح العربي في سعة من كيانه الفكري والروحي فلا يضطر الى تبديل قوميته او الانتقاض عليها كلما اراد ان يكون فيلسوفاً خطيراً او عالماً كبيراً او مخترعاً شهيراً كما حدث لعدد وافر من علماء العرب ومكتشفيهم ومفكريهم في العهد الأخير .

وينبغي ان لا يقتصر التعريب على النواحي العلمية دون غيرها ، بل يجب ان تشمل هذه الفعّالية جميع فروع المعارف والفنون : هناك فنون جهلها القدامى من العرب كالأدب المسرحي ، وهناك فنون مستحدثة كالسينما وفن القصة ، وهناك تعديلات ومبادىء ودراسات زيدت على فلسفة الأغريق ، وهناك مذاهب في التفكير وفي الدين وفي البحث بُعثت جديدة مع الحضارة الأوربية – الأميركية لم تأخذ بعدُ حظّها الوافي من الدراسة والفهم عند العرب ، رغم بعض المحاولات في تقليدها وتوجيه المثقفين نحوها .

للقديسين من الغربيين تآليفُ لم يسمع بها القسم الاكبر من العرب ، وللسياح والرواد والادباء والقصاصين دراسات في الحياة والاقطار والبيئات لم تصل للمسامع العربية الا بعض اصدائها ، ولن يتأتى للعرب ان يستعيدوا مكانتهم في العالم ما لم يفهموا العالم الحديث بجميع مزاياه ومظاهره ، ولن يفهموه الا بتعريب مدنيته والاطلاع الواسع على دقائقها الى ان يهضموها ويحاكوها ويأخذوا بالطيب منها ويطرحوا الخبيث .

ولن يكفي النقل او الترجمة لتتعرب المدنية الحديثة ، بل تجب المساهمة الفعّالة في ارتياد الاقطار النائية ، ودرس حيوات الامم والشعوب . يجب ان يكون ثمة اتصال مباشر بألوان الثقافات الشرقية الحديثة والقديمة ، والثقافات الأوربية والاميركية فالصين لا تزال بعيدة عن العرب ، وكذلك الهند والملايو ، مع ان المسافة العقلية قصرت بينهم وبين الافرنج من كل جنس وملة .

وبديهي ان عملية التعريب هذه تحتاج الى زمن ، ولكن لا مفرّ من تحقيقها ، ولا غنى عن استعجالها واتقانها ، وهي لن تؤتي الثمار المرجوة منها الا بتحسين وسائل النقل بين الاقطار العربية تحسيناً مستمراً متواصلاً من جهة ، وبين أقطار العالم من جهة ثانية ، ثم الاحتكاك القريب بالطبقات الشعبية والهيئات النسائية من قبل المثقفين والمطلعين .

ومنه ناحية جديدة بكل اهتمام ، قلّت بها عناية العرب في الأعصر الاخيرة ، هي « النسل » فقد أساءت الى النسل العربي تلك الانظمة الاجتماعية القديمة التي جعلت للماليك والتتر والمغول والافرنج يداً في داخل الامة العربية وكان لمثل تلك الزيجات أثر عميق في «تفتيت» الشخصية العربية وتشويه خصائصها ، والقضاء على أنفس ميزاتها الذاتية في كثير من الاوساط .

وليست العناية بالنسل العربي — كما أفهمها — حركة عنصرية يراد منها تفضيل العرب على غيرهم وتوجيههم نحو احتقار غيرهم من العناصر . لا أقصد ذلك أبداً ، وانما ينبغي لكل عربي ولكل عربية ان يحسبا في زواجها حساب الامة وان ينظرا الى اثر عملها هذا في مستقبلها ورفع مستواها وبناء امجادها ، فلا يغرب عن بالها ما كان للجواري والسراري والقيان من تأثير مفجع هدّام على حضارة العرب في بغداد وفي دمشق وفي سائر العواصم العربية ، وفي الاندلس نفسها من بعد . . .

ولا تقتصر هذه العناية بالنسل على الزواج وحسن اختياره وتوجيهه فحسب ، بل تشمل الرعاية التامة للمنشآت الصحية والمؤسسات الاختبارية ، فقد ذهبت الامراض بجزء غير قليل من عبقرية العرب ، وانتشرت فيهم الاوبئة العقلية والاخلاقية انتشاراً يبعث على الالم ، ويدعو الى مجاهدة اغلب الافكار الواردة من الخارج في هذه النواحي ، ويستحث المخلصين الى كفاح شديد يفوق كفاح الساسة واللغويين .

ثم يجب ان يحدث تيار خاص من شأنه ان يجعل العراقيين يتزوجون من المصريات والمصريين من العراقيات ، واللبنانيات من المغربيين ، والمغربيين من بنات الجزيرة . وهكذا . . . الى ان تختلط أنساب الامة العربية اختلاطاً عميقاً يوحد بين ابنائها وبناتها في حيز الاسرة بمعناها الضيق القريب اذ لا بد وان يوجد هذا التزاوج ، في جيل او جيلين ، أنماطاً من العبقريات العربية لا نستطيع ان نتصور الآن مدى ما فيها من قوة وسمو وتحليق في شتى الميادين العملية والفروع الثقافية والروحية .

غير ان هذه القضايا لا تتحقق بهذه السهولة اذ لم تزل هنالك ناحية نفسية هامة تعوق هذه الالوان من الاصلاح هي طغيان الفردية على الحياة الاجتماعية عند العرب ، وتغلغل الأثرة في اكثر الاعمال العامة . وتلك هنة تتنافى مع روح هذا العصر الذي تقوم فيه الحياة على اساس من التعاون والتفاهم وبعد النظر .

يجب والحالة هذه ان يثور العربي على نفسه ، والثورة على النفس في حيز العروبة تعني : ايقاف الرغبات الشخصية عند حد معقول بحيث لا تقف هذه الرغبات حجر عثرة في سبيل الرقي العام ولا تتعارض مع المصلحة العربية العامة ، يجب ان تنسجم المنافع الشخصية انسجاماً تاماً مع اتجاهات الامة وغاياتها .

وهي تعني ايضاً انصهار الافراد في أحزاب ، وانصهار الاحزاب نفسها في افكار ، وانصهار الافكار كلها في فكرة عربية واحدة هي : انقاذ الانسانية ، لان انقاذ الانسانية عملية بدأ بها العرب واتجهوا نحوها من اقدم الازمان الى الآن .

وهي تعني كذلك ان يتحلّل العربي من كل قيد فكري او مادي من شأنه ان يحجبه عن غاياته المثلى او يشل فعاليته بما ضؤل امرها ، وحقر شأنها .

وانما تتأكد هذه الثورة بالتطلّع للمستقبل من غير تلفت الى حماقات الماضي ، تلك الحماقات التي جرت العروبة الى التخاذل والانقسام .

وتكون أجدى ما تكون حين ينظر كل عربي لنفسه نظرة راع مسؤول عن رعيته فلا يستجيب لطمع ، ولا يغريه منصب ، ولا تفل من عزمه صعوبة ، ولا يضيق عن حياته في مأزق ، حتى يتسع كيانه اتساعاً عظيماً شاملاً فلا يُسر الا بما تسر له امته ، ولا يحزن الا لما يحزنها .

ولا يجوز ان نفسر هذه الثورة بما يقيد الطموح الشخصي او يكبت الشعور ، بل ، نقصد منها الى تقييد الطموح في حيز المصلحة العربية العامة ، واطلاقه الى أبعد مدى في شؤون الفكر والحياة ، فلا تصطدم مطامح الفرد بالمطامح العليا للامة . . .

ومتى حقق العربي تلك الثورة على نفسه ، وانتهى منها الى ذاتية قومية تتمثل في حبه العميق لكل من هو عربي ولكل ما هو عربي ، يصبح من واجبه حينئذ ان يعوّل على نفسه — لا على حكومته او طائفته او مركزه — في رعاية المؤسسات العامة والمشروعات الاجتماعية العامة . ينبغي له ان يدرك هذه الحقيقة الكبرى في حياته القومية ، وهي ان رقيّ الامة لا يقاس بعبقرية تاريخها وكثرة الادباء والشعراء من ابنائها ومرونة الحكام ودهاء الساسة عندها ، وانما معياره الصحيح في انتظام الطبقات الشعبية حول القضايا الرئيسية التي تهم المجموع كالتعليم والقضاء وحفظ الامن والمنشآت الخيرية (المياتم ،

المستشفيات ، ملاجىء العجزة ، اصلاحيات الأسر ، مآوي المتشردين والاحداث) ، فاذا ظل الشعب ينتظر ان تنفرج ازماته المادية والادبية على يد حكامه ورؤسائه فلن يستفيد غير الانتظار ... لان مثل هذه الاعمال تنبع ابداً ودائماً من روح الشعب وتستهدف خير الشعب ، وليس للقائمين على تنفيذ القانون الا ان يساهموا في رعايتها وصيانتها وتدبيرها وازدهارها .

ان كل يقظة قومية لا تواكبها شركات اقتصادية منظمة ، وجمعيات ثقافية منتجة وأحزاب سياسية مخلصة ذات هدف قومي واحد ، تفضي الى الاضطراب . ووراء الاضطراب خمود فركود .

يجب اذن ان لا ينتظر العرب كشعوب ان تنهض بهم الحكومات كدول ، وانما ينهض بهم تعويلهم على الطبقات الشعبية .

ثم ينبغي لكل عربي في المرحلة الراهنة من حياته العامة ان يولي الجوانب الاجتماعية القسط الاعظم من جهوده ، وان يترك السياسة العامة — الا قليلاً — للرجال الذين تفرغوا لها واندفعوا نحوها ، وأقاموا البرهان على كفاياتهم في خوض غمارها ، واثبتوا كيانياً اخلاصهم للفكرة العربية ، حتى اذا ارتفع المستوى المدني في جميع الاوساط ، ونما الوعي الاجتماعي نمواً مثمراً ، استأنف الشعب العربي من تلقاء نفسه مراس القضايا الدولية والاحتكاك المنتج بها ، كما هي الحال عند الانكليز في طورهم الاجتماعي الراهن .

ذلك لان عرب اليوم على الجملة في حاجة الى « مصلحين » اكثر مما هم في حاجة الى « دهاة » ... ثم ان طرائق ديبلوماسيتهم ستختلف ، بعد ان تحقق العروبة شخصيتها عن طرائق الدبلوماسية الغربية ، اذ لا بد وان يدخلوا عليها كثيراً من التعديل ، وان يسوقوا العالم سوقاً الى مراعاة قواعد الشرف والمروءة في تركيز العلاقات الانسانية ..

فاذا وعى العربي من امته وارتبط كيانه الروحي بكيانها ، واذا احتلت لغته المنزلة اللائقة بها من نفسه ومن العالم ، واذا لبست مدنية القرن العشرين ثوبها العربي وأصبحت عربية الروح في عالمه ، واذا روعيت قواعد القومية في النسل العربي ، واذا تمكن كل عربي من الثورة على نفسه والاستفادة من هذه الثورة للانطلاق والمغامرة ، واذا اصبحت المؤسسات العامة والمشروعات الاجتماعية في يد الشعب لا في يد الحكومة ، واذا انصرفت الجماهير العربية عن السياسة الى ترقية شؤونها الزراعية والصناعية والثقافية — اذا تم كل ذلك ، على درجة عالية يصبح التفكير في اقامة دولة عربية عامة مجدياً وصحيحاً ...

الا ان المهم في الموقف الراهن هو تحقيق هذه الشؤون لتنبعث الروح العربية من جديد ، ومتى انبعثت هذه الروح في جميع الاقطار والبلدان ، او في القسم الاكبر منها — وتركزت في الافئدة والعقول تركزاً عصرياً ، اي بعيداً عن العصبية الدينية والاثرة الاقليمية تهتدي من تلقاء ذاتها الى أشكال في الحكم وطرائق في العمل لا نستطيع ان نرسم لها الآن حداً ولا شكلاً معيناً ..

والمهم في تحقيق هذه الوسائل ، من جهة ثانية ، هو ان لا تنفصل واحدة عن اختها ، بل يجب ان يصار الى اجرائها معاً بنفس الحماسة ونفس الرغبة التقدمية . ولا مندوحة عن فرض التعاون على الحكومات العربية من قبل شعوبها ، كما انه لا غنى عن التعاون بين الشعوب والحكومات في كثير من القضايا العامة (المواصلات ، العناية بالنسل ، الخ ...) الى ان تنهار الحواجز المادية والادبية بين فرد عربي في اقصى المغرب ، وفرد عربي آخر في اقصى المشرق .

اما من هم الذين يحققون هذه الاشياء ، فهم اولئك الرجال والنساء الذين يجدون في أنفسهم الكفايات اللازمة لتحقيقها والذين يطمحون الى حياة أرقى وأغنى وأعدل من الحياة الراهنة التي يتقلبون في اجوائها ، ولا قيمة بعد ذلك للظروف والاشخاص والطبقات ، فان لكل فرد قيمته الخاصة في ميدانه الخاص وبيئته الخاصة ، وعليه وحده ان يبرزها ويظهر اثرها في كيان امته العام .

ولا بد ان تكافىء الامة العربية كل من تطوع لمثل هذه الاعمال في حيز سلطانها وعبقريتها ، طوعاً منها وكرهاً عنه ، فقد رأينا ان الوفاء اخص خصائص الروح العربية .

في غمار هذا النضال المستمر الدائب وفي تعطش العالم الى حياة ينعمها الامن والسلام والسعادة ، تتخذ العروبة طريقها الى احتلال منزلتها الاولى والحقيقية في كيان الانسانية .

وهناك ... هناك ينتقل العالم الى آفاق جديدة لا شك انها نيرة مضيئة تتبدد فيها سحب كثيرة من تهاويل الجشع والاثرة والجهل والآلام البشرية ...

اليس في هذا الامل وحده ما يدفع كل عربي الى النضال؟ الا يحس ما تنتظره الانسانية على يديه ؟ !!

صيدا عبد اللطيف شرارة

الامير شكيب ارسلان

بقلم امين محمد ابو عز الدين

☆

الامة اشبه بجسم حي فيها كما في هذا الجسم من اعضاء رئيسية لا بدّ لها منها لنموها وارتقائها، وفيها اعضاء اخرى نسبتها الى الاعضاء الرئيسية نسبة الفضلة الى العمدة، فتقطع ولا يؤثر قطعها في حياة الامة ونموها. والاعضاء الرئيسية في الامة هم نوابغها في العلم والادب والسياسة يعمل كل منهم عمله الذي خص به كما تعمل الاعضاء الرئيسية في الجسم، وبذلك تنمو الامة وتقوى الى ان تبلغ سن الرشد فتشعر بمناعتها الذاتية وتكامل قواها وما لها من حق في هذا الوجود. ولعلّ الامير شكيب ارسلان من اولئك النوابغ في العالم الاسلامي ودنيا العرب او هو عضو من اعضائها الرئيسية. وهذا ما سنحاول بحثه في هذا العدد بعد ان اتينا في مقال سابق [١] على لمحة مختصرة عن العائلة الارسلانية وحياة الامير شكيب في لبنان واخيراً ادبه وبيانه.

دعوته للجامعة الاسلامية

لا بد من كلمة وجيزة عن الاسباب التي دعت الى قيام حركة الجامعة الاسلامية منذ النصف الثاني من القرن الماضي، لكي يتسنى لنا ايضاح عمل الامير شكيب في هذا الميدان ورأيه في هذه الجامعة والغايات التي كان يرمي اليها من وراء التبشير بها.

في الثلث الاول من القرن الماضي اخذ الوجل من الغرب والخوف من طغيانه يتسلطان على نفوس الشعوب الشرقية واخصها الشعوب الاسلامية التي كانت في مقدمة تلك الشعوب تعرضاً لغزو دول اوربا نظراً لموقع اوطانها الجغرافي من حيث قربها من اوربا او محاذاتها لها. وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان قد استخلص الجانب الاكبر من اراضي الدولة العثمانية في اوربا كما ان الفرنسيس فتحوا الجزائر وباتوا يهدّدون سائر بلدان المغرب واستولت روسيا على بلاد القوقاس وما جاورها من بعض الاراضي الاسلامية في اسيا الوسطى، وبسطت انكلترا نفوذها على الهند من اقصاها الى اقصاها [٢] وهذا كله مما جعل قادة المسلمين ومفكريهم في كل صقع يوقنون ان العالم الاسلامي يحيق به خطر عظيم!

وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الحالة الخطيرة المداهمة قيام ردّ فعل قوي بين الشعوب الاسلامية قاطبة لصدّ هذا الخطر المحدق ومقاومته فنشأت حركة الجامعة الاسلامية وسارت في تيّار غايته مقاومة الغرب وصدّ غزواته. وهكذا كانت هذه الحركة منذ البدء حركة سياسية دفاعية من حيث اسباب قيامها من جهة وغاياتها ومراميها من جهة اخرى، وما برحت تسير هذا المسير حتى يومنا هذا. ومن ابرز مظاهر هذه الحركة تلك الثورات المسلحة التي قام بها ابطال من المسلمين مثل عبد القادر الجزائري في شمالي افريقيا (١٨٣٢ — ١٨٤٧) والشيخ احمد شامل في بلاد القوقاس (١٨٣٢—١٨٥٩) ومحمد احمد المهدي في السودان (١٨٨٢—١٨٩٨) والامير دوست محمد خان في افغانستان (١٨٤٢—١٨٦٣) [٣] والسنوسيون في ليبيا (١٩١١—١٩٣٢) [٤] الى غير ذلك مما حدث من الثورات التي اصطبغت بمثل هذه الصبغة في تركستان الصينية وجزائر الهند الشرقية خلال الربع الثالث من القرن الماضي. وقد حمل السلطان عبد الحميد العثماني لواء هذه الجامعة مدة من الزمن بوصفه خليفة المسلمين لكنه كثيراً ما استغلها لمآربه الشخصية واغراض سياسية اخرى.

---

(١) راجع مجلة الاديب عدد كانون الثاني ١٩٤٧.

(٢) في الهند اليوم ما يقارب المئة مليون من المسلمين.

(٣) استمرت ثورات الافغان بقيادة حفيده الامير عبد الرحمن الشهير ضد الانكليز والروس حتى اوائل القرن الحالي واستكملت الافغان سيادتها بموجب معاهدة ١٩٢١.

(٤) وكان السيد احمد المهدي السنوسي قد حارب الفرنسيس في اواسط صحراء افريقيا منذ عام ١٩٠٢

غير ان هذه الثورات التي قامت في بلدان مختلفة من العالم الاسلامي كان ينقصها التنظيم وربط حلقاتها في سلسلة واحدة. كما كانت تعوزها القوة المركزية لتقرير الخطط وتدبير الامور وقد ادرك رجال الجامعة الاسلامية الحكماء هذا النقص فيما بعد كما ايقنوا ان الثورات المحدودة التي تقوم في موضع وموضع، لا يمكن ان توهن شيئاً من هجوم الغرب وقوته المرتكزة على احدث الاصول والفنون. فعقدوا النية على السعي من اجل القيام بعمل شامل منظم يجمع الوحدة العامة والرابطة الكبرى. وفوق هذا ايقنوا ان استقلال بلدان العالم الاسلامي يجب ان يسبقه التجدد الروحي والعلمي وان الشرق عموماً اذا رام مقاومة الغرب ورد غزواته وجب عليه اكتناه عظمة الغرب وقوته ونهج مناهجه. وعند هذه النقطة التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية وعلى رأسهم السيد جمال الدين الافغاني ومنهم عالي باشا التركي وخير الدين باشا التونسي والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي وصاحب الترجمة الامير شكيب.

الا ان الامير شكيب كانت تغلب على مبادئه بنوع خاص الصبغة السياسية لانه كان يرى ان اصلاح السياسة يصلح كل شيء، وهذا الاصلاح في السياسة قد انحصر عنده منذ بدأ مساهمته في الدعوة للجامعة الاسلامية حتى انتهاء الحرب العالمية الاولى - اي مدة ربع قرن - في نقطتين: الاولى، اصلاح الحكم الاستبدادي في الدولة العثمانية وفي سائر الدول الاسلامية الاخرى وتقويم المعوج في شؤونها الداخلية، الثانية، تخليص الشعوب الاسلامية الواقعة تحت الحكم الاجنبي. وقد ظلّت هذه النقطة الثانية مدار عمله في هذا الميدان حتى النفس الاخير من حياته. وارتأى لخلاص الشعوب الاسلامية مما كانت واقعة فيه للمدة المذكورة تأليف الجامعة الاسلامية تحت رياسة الخليفة - على ان يكون من نوع الخلفاء الصالحين - ولم يكن لذلك العهد يرى دولة تصلح لهذه الزعامة او لتكون القوة المركزية لتلك الحركة سوى الدولة العثمانية. وهذا ما يفسر لنا تأييده لهذه الدولة في ما مضى مكتفياً بالدعوة للاصلاح في شؤونها الداخلية. كما انه يمكن القول ان جهاد صاحب الترجمة في سبيل الجامعة الاسلامية كان حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره.

يرجع تاريخ الامير شكيب في هذا الميدان الى اليوم الذي تعرّف به الى الشيخ محمد عبده ايام كان هذا الاخير منفياً في بيروت على اثر الحركة العرابية في مصر، وذلك عام ١٨٨٦. ولازمه واخذ عنه واستفاد منه ورأى في فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى ان ينهض بالاسلام. وقد تأثر ايضاً بتعاليم زعيم الحركة الاسلامية السيد جمال الدين الافغاني الذي كان يلتقي به في استانبول قبيل انتهاء القرن الماضي. وقد استهدى سبل ذلك المصلح الاسلامي العظيم في خططه التقدمية في الدين والسياسة والاجتماع. وفي اوائل عام ١٩١٢ قام الامير شكيب باولى جولاته الجهادية وكانت عملاً مسلحاً. فقد ذهب يومئذ الى طرابلس الغرب على اثر غزو الطليان لتلك البلاد واشترك في الدفاع عنها اشتراكاً فعلياً على رأس فريق من المجاهدين قدموا من بلاد الشام.

وقد كان سائحاً جواباً كالافغاني والكواكبي فزار اكثر مواطن العالم الاسلامي فزادته هذه السياحات خبرة فوق علمه واعانته عوناً كبيراً على القيام بجلائل الاعمال التي قام بها. وندر ان بقي زعيم مسلم لم يلاقه او يتصل به وكان اينما حل يتلقاه الناس بالحفاوة والاكرام. وقد امتزج باكثر المصلحين من الشعوب الشرقية بعد ان استمالهم بعقله وفصاحته وسعة علمه. وترك في المواطن التي وطئها خبرة صالحة. اشهر مؤلفاته الاسلامية تعليقاته المستفيضة على كتاب «حاضر العالم الاسلامي» لستودرد الاميركي ترجمة عجاج نويهض، وكتابه «لماذا تأخر المسلمون...» وغيرهما مما كتبه في مجلة «المنار» للمرحوم الشيخ رشيد رضا وسائر صحف العالم من عربية وافرنجية.

ولما اشتهر امره وعظم نفوذه خصوصاً بعد الحرب العالمية الاولى خشيت الدول الاستعمارية جهاده وحسبت له الف حساب بحجة انه مهيج خطر. ولم تخش دولة الامير شكيب وتضطهده مثل ما خشيته واضطهدته دولتا انكلترا وفرنسا وهما يومئذ صاحبتا الحول والطول في العالمين العربي والاسلامي فحرمت عليه الدخول الى اي قطر من هذه الاقطار. والدول المستعمرة تخشى الرجال الافذاذ والقادة المصلحين لانهم يحملون رسالة تحريرية وافكاراً تقدمية. وهذه الافكار - كما قال المحامي المصري المعروف الاستاذ محمد لطفي جمعه في كتابه «حياة الشرق» - «تعمل باقوى مما يعمل الجيش العرمرم لان الجيش قد يصمد وقد يفنى ولكن الفكرة تحيا وتسير، والفكرة السائرة اخطر من الجيش الفاتح لانها تغزو ولا تفقد شيئاً من قوتها بل تربح رجالاً واقواماً وتنمو كلما سارت».

وتحسن الاشارة هنا الى ان الامير شكيب كان بعيداً عن فكرة التفريق بين الشعوب والملل ولم يقصد يوماً ان ينال من اي دين آخر او ان يحرك تعصب الاسلام على المسيحية كما فعل فريق

من كتاب الغرب امثال هناتو وكرومر وزوايمر في تهجمهم على الاسلام وما بدا في كتاباتهم من خطة العداء والتعصب والبغضاء فكان عنيفاً ولا شك في الرد عليهم مفنداً مزاعمهم فاضحاً خططهم بحجته العلمية الدامغة دون ما تبذل في الجدل الديني او التعرض لمعتقدهم كما فعلوا في تعرضهم للاسلام .

عماء في سبيل العروبة

المعروف ان الامير شكيب ارسلان لم يكن من مؤيدي الثورة العربية ابان الحرب العالمية الاولى . وسبب ذلك يعود الى ما كان يتوقعه من ان العرب سينالون حقوقهم من الترك عن طريق تحويل السلطنة العثمانية الى دول متحدة او ولايات تكون الادارة فيها على اساس اللامركزية ، ثانياً كان يرى في الدولة العثمانية حصناً يقي الشرق الادنى شر مطامع الدول الاوربية التي ظهرت بوادرها قبيل الحرب وعاملاً قوياً يحرك الجامعة الاسلامية للحد من مطامع الغرب في سائر العالم الاسلامي ثالثاً ان الثورة تضعف الدولة العثمانية ولا تضمن للعرب استقلالهم وهذا ما وقع بالفعل فقد كانت الثورة وبالاً على الدولة العثمانية وكوفيء العرب على قيامهم بها من جانب الحلفاء الذين وثقوا بوعودهم بان اصبحت بلادهم ميداناً لمطامع اولئك الحلفاء ورزقاً سائباً لتنفيذ مشاريعهم الاستعمارية . وقد صدق الامير شكيب ابان الحرب حين كان يرد على من كان لا يرى رأيه هذا بقوله :

سيعلم قومي انني لا اغشهم ومها استطال الليل فالصبح واصله

اما وقد تبدلت الحال بعد الحرب العالمية الاولى من حيث الشؤون الدولية والتوجيه السياسي في الشرق وذلك بسبب ذهاب الدولة العثمانية والغاء الخلافة – وكانت تلك الدولة قبل ذلك التاريخ اقرب الدول لتزعم الجامعة الاسلامية – واصبح الوعي العربي حقيقة ملموسة له اثره وامكانياته البعيدة المدى ، وبلاد اليمن والحجاز ونجد تتمتع بقسط كبير من الاستقلال وكذلك مصر تجد في طريق استكمال سيادتها والعراق والبلاد الشامية تثور على من هضموا حقوقها السياسية ، نرى الامير شكيب – وعمله اولاً وآخراً ومهما كان ظاهره انما هو محمول على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره – لا تغره ظواهر الدعوة الى هذا العمل ان كان باسم الدين او اللغة او الوطن بل ينظر الى الباعث الحقيقي والفائدة العامة المرتقبة ، وطالما ان سائر البلدان الاسلامية بعد الحرب اصبحت حالتها السياسية ليست بأسعد مما ذكرنا من البلدان العربية ، وغدت الدعوة للجامعة العربية مع انها اقل شمولا من الجامعة الاسلامية واخف خطراً في نظر الغرب ، ايسر منها في جمع الكلمة واقربها تحقيقاً واركزها فائدة وعملاً ، نراه يدعو الى هذه الجامعة العربية – او الحلف العربي كما سماه اولاً – لكي تصبح كأختها الجامعة الاسلامية من حيث الغاية والغرض سداً في وجه الاستعمار الاوربي وحصناً منيعاً تتمركز فيه دولها عندما تدعو الحاجة للدفاع عن استقلالها وسيادتها وحقوقها .

يرجع تاريخ دعوته الى الجامعة العربية الى سنة ١٩٢٢ عندما حاول ورفاقاً له من المشتغلين يومئذ بالقضية العربية كشف القناع عن حقيقتها . ومن هؤلاء الرفاق احسان بك الجابري ونوري باشا السعيد وجعفر باشا العسكري وموسى كاظم باشا الحسيني وناجي بك الاصيل وامين بك التميمي . وفي سنة ١٩٢٣ نشر الامير شكيب واحسان بك الجابري بياناً بليغاً يدعو الى الجامعة العربية وقد وجهاه الى البلاد العربية وملوكها كما وزعت منه آلاف النسخ ، وطلبا ان يكونوا كتلة عربية لان الخطر شديد على البلاد لو بقوا متخاذلين متفرقين ، ودار على الالسن يومئذ العراق واليمن والحجاز ونجد كنواة لهذه الجامعة او الحلف كما سمي في ذلك الوقت . وقد حرص الكاتب على ان تبقى كل دولة على حدودها وكيانها ونظام الحكم فيها على ان يتشاوروا في القضايا الخارجية ويشتركوا في الامور الاقتصادية والشؤون الثقافية والدفاع ، غير ان هذه الدعوة لم تصادف وتتشد نجاحاً ملموساً لان المستعمرين وهم في تلك الايام اصحاب الحل والربط في الجانب الاكبر من دنيا العرب لم يوافقوا عليها ، الا انها ظلت فكرة سائرة تختمر في عقول اكثر رجالات العرب .

وقد عاد عام ١٩٣١ يبشر بهذه الجامعة او الحلف العربي ويدعو اليه . ومن جملة ما كتبه بهذا الصدد مقال نشر في جريدة «الشورى» الصادرة يومئذ عن القاهرة بتاريخ ١١ مارس (اذار) سنة ١٩٣١ استهله بقوله : « بكينا حتى عمينا على ان نرى تحقيق مشروع الحلف العربي واجمعنا كلنا على انه لا حياة للعرب في هذا العصر وما يليه الا به لانه الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذي انشب براثنه بقسم من بلداننا . وهو يتهدد القسم الباقي منها . فاذا انشب براثنه بجزيرة العرب كما انشبها بسوريا ولبنان والعراق وفلسطين والكويت والبحرين وعمان وحضرموت وعدن لم يبق عربي على وجه البسيطة حراً . »

والامير شكيب اياد بيضاء في محو كثير من اسباب سوء التفاهم الذي كان ينشأ احياناً بين ملوك العرب او بين امرائهم او

سائر رجالاتهم وغالباً ما كللت مساعيه بالنجاح بفضل مـا كان يتمتع به عندهم من نفوذ واكرام، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى قلما جاء وفد عربي الى باريس او لندن او جنيف او غيرها من العواصم ليطالب بحقوق العرب ولم يكن الامير شكيب من ابرز اعضائه او كبار مستشاريه كما ندر ان عقد مؤتمر عربي عام وكان بعيداً عنه . ولم تقم ثورة في قطر عربي في المشرق او المغرب ضد الاستعمار الا وكان المدافع عن القائمين بها ناشراً الدعوة لها وكاشفاً الستار عن اعمال المستعمرين في اوطانه . كتب في ١٩٢٦ عندما طرد الانكليز مجاهدي سوريا في ثورة ١٩٢٥ من الازرق التابع لشرقي الاردن — فلجأوا الى ارض ابن السعود فقال تلك الجملة التي سارت مثلا « العرب اصبحوا غرباء حتى في بواديهم » .

لقد كان رسول العرب وممثلا دائماً لهم امام عصبة الامم وقد استقرَّ اخيراً مدَّة ربع قرن في سويسرا بين لوزان وجنيف حيث كانت تلتقي تيارات السياسة العالمية ويجتمع قادة الدول فيطلعهم على احوال قومه ويبسط لهم قضية العرب العادلة . وقد انشأ لهـذا الغرض مع رفيقه في الجهاد احسان بك الجابري مجلة شهرية باللغة الافرنسية « La Nation Arabe » عام ١٩٣٠ واستمر يصدرها ويشرف على سياستها وشؤونها ويحرر الجانب الاكبر منها الى ما قبل الحرب العالمية الاخيرة ، وقد كانت هذه المجلة لسان حال وفد اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني الذي كان صاحب الترجمة ابرز اعضائه كما انها كانت تبحث في سائر الشؤون الشرقيـة والعربية . ولم يكن يومئذ صحيفة غيرها بلغة اجنبية تحمل رسالتها وستحتفظ هذه المجلة بمكانتها في تاريخ العرب القومي بعد الحرب العالمية الاولى من حيث انها كانت عملاً موفقاً في بث الدعوة العربية في اوربا وخير وسيلة عرضت بها قضيتهم على الناس هناك .

وفي هذه المرحلة الاخيرة من حياته اصبح الامير شكيب موجعاً في السياستين العربية والاسلامية وصار اسمه شغل الصحافة العالمية التي تعنى بهذه الشؤون وشغل الحكومات التي لهـا علاقة بهذه الاقطار وغدا بيته في لوزان محج رجال الوطنية من المشرق والمغرب ومزار المستطلعين من سائر الناس . وقد وصفه بعض عارفيه يومئذ « بقلعة العرب في الغرب »

ومن الاراء التي جاءت عن لسانه في الايام الاخيرة من حياته بعد مجيئه الى بيروت : ان يكون للامة العربية قوة عسكرية متناسبة وعددها وقوتها الحقيقية لاسيما وان امام العرب مشكلات خطيرة كمشكلة فلسطين مثلاً — وهذه المشاكل وان تكن قد اصبحت من الوضوح بحيث تبدو حقوق العرب ظاهرة فان مـا يناله العرب من حقوقهم يكون بقدرما لهم من قوة . وقوة العرب هذه المتناسبة وعددهم اذا ما تهيأت وظهرت فان المسألة الفلسطينية التي يراها الناس اعظم معضلة في الدنيا تنحل من ذاتها . وكان يجيب على من يقول ان جامعة الامم المتحدة قررت السلام ومنع الالتجاء الى العنف في حل اي مشكل من المشاكل ، بقوله نحن نرجو ان يكون المستقبل سائراً على موجب هذا الامل ولكن اذا كان هذا الامل كافياً مطمئناً فاننا نتساءل لماذا تحتفظ الدول الثلاث الكبرى بجانب كبير من جيوشها الجرارة .

وكان ينفي ما يقال من ان يداً اجنبية تسيطر على التوجيه العربي وقال ليس هناك من يسيطر على الجامعة العربية وانما هي اشاعات لمآرب معلومة . وان كان من نقص واقع في الجامعة العربية فهو غير آت من سيطرة اجنبية عليها وانما من تقصير العرب انفسهم في واجباتهم القومية .

اخلاقه وصفاته

كان ربع القامة ليس بالبدين مزاجه يميل الى العصبي ، سريع الخاطر حـاضر الذهن ذاكرته عجيبة تفوق حد الوصف . راوية من الطبقة الاولى وهذا راجع لسعة علمه واطلاعه وخبرته . لا يمل مجالسه يطرب للنكتة الادبية وكان مع ذلـك شديد الحرص على كرامته عفيف النفس كثير الاباء الى حد الترفع ولا سيما فيما يتعلق بالارتزاق على انه كان مع من خبرهم او اكتسبوا ودّه وديعاً ليناً . لم يسترض على نفسه احداً لكنه عندما يبسط خصمه اليه يده كان ينسى الخصومة دون عتب او لوم وهذه وايم الحق صفة الرجل العظيم المتزّه ، اشتغل بالقلم التماساً لتلك اللذة التي كثيراً ما اغوت اصحاب القرائح واستنزفت قواهم فعاشوا على كفاف من رزقهم وماتوا متروفين .

كان رحمه الله زعيم حركة في العالمين العربي والاسلامي لا رئيس حكومة في قطر من اقطارهما . كان يجد الفخر في النفي والايذاء لا في كرسي الحكم والسلطان . هو الرجل الذي جاهد في سبيل جميع الشعوب الشرقية فناضل عن اندونيسيا والهند وافغانستان وعن كل امة مسلمة وشعب عربي واقع تحت نير الظلم الاجنبي . اعطى حياته للعرب والاسلام ولم يطلب منها شيئاً ، مات فقيراً وهذا اسطع برهان على نزاهته وشرفه واخلاصه .

العباديه — امين محمد ابو عز الدين

الرحيل

☆

ذكرى اخي المرحوم كريم

للانسة رضية سيف الدين

اللاذقية

•

يا طيفه وعلى الاهداب خطرته ... ولوعة القلب كم ادمته لوعته
غصت بدمعته الجمراء وانتهبت ... بين الجفون امانيــه وبسمته
حلم على رعشات الجفن متكىء ... تدمي محاجره النجلاء حرقته
تخشى تفلُّته الاهــداب حانية ... تضمه وتضم الطيف بردتــه
تاهت وفي النغم المخنوق ما فتئت ... تريح مماره فى البؤس زفرتــه
ناديتهُ ونسيم الصبــح منسرب ... بين الخمائل تكسو الروض هيبته
تنتابني قلقات الصمت من فمه ... حتى تبدّد هــذا البؤس انته
ماتت على نغمات القلب باسمة ... بين الدموع وبين الحب آهته
يا زهر اين من السمار بهجتــه ... والانس اين من الاتراب رقته
لكنها ذبلت والحب بين يدي ... غب الشباب وما أهنتك جيرته
الفت دمعي لاصبــرٌ يهدهده ... بعد الفراق وتذكي الجمر حسرته
ودعت بعدك افراحي ولذتهـا ... والحزن ترتع في الامال جذوته
احب طيفك في جفني تداعبــه ... ـما غاب شخصك عن طرفي محبته

☆

زهور وضباب

☆

لحسين الهداوى

بغداد

ليت شعري ؟ . انا ، انا ماذا ؟ ... جذوة في لهيب روحي فناهـا
سوف تمضي مع الحياة سريعـاً ... ثم يفنى لهيبهـا وسناهـا
انا لحن الحياة والالمُ الصـارخ ... لحن ليأسهـا ومناهـا
نفحـات شعرية تتسـامى ... وهي مجنونة يجب صداهـا
امل ظـامىء الى الفيض يهفو ... سر روح تطغى على ما عداها
انا حلم افاق من حلمها الداجي ... على لحن بؤسها وأساها
ليس يدري هل في الحياة جمال ... ام فناء الوجود سر رؤاها ! !
زهرة في رحيقها الالم الصامت ... افنى رحيقها وصباها
فهوت عند ضفة النهر وهناً ... تتملى الميـاه في مجراها

☆☆☆

ليت شعري . فهل انا غير رؤيا ... في ضمير الوجود حيث طواهـا
بعثرتها الرياح في ظلمات العدم ... الحلو فانتشى اذ محاهـا
انا؟ما كنت؟ ما اكون ؟ وماذا ... ساكون الغداة؟ بعد فناها . . . ؟



أشواق

للاستاذ سهيل ادريس – ١٢٦ صفحة – دار العلم للملايين – بيروت

صدق القاص المصري الاستاذ محمود تيمور بك اذ قال عن اولئك الذين مهّدوا السبيل للقصة العربية ، أنهم ليسوا عباقرة ولن يكونوا عباقرة ، وانما سيبزغ العباقرة في هذا الفن من الجيل الطالع بعد ان عُبّد لهم الطريق . اقول صدق في قوله هذا . فها هي بشائر العبقرية تبدو جلية في قصص بعض ادباء الشباب كآثار القصاص المصري الاستاذ نجيب محفوظ ، والقصاص اللبناني الاستاذ سهيل ادريس ، وغيرهما من القصاصين المبدعين . وقد أصدر الاستاذ سهيل مؤخراً باكورة تآليفه بعنوان « أشواق » ، فبرهن به على خيال قصصي خصب ومقدرة فنية فذّة .

والواقع انني لم استكثر على الاستاذ سهيل تلك القطع الفنية التي قدّمها لنا في كتابه ، وهو ذلك الناقد القصصي الممتاز الذي زوّد بذوق فني رفيع يؤهله للبراعة في هذا الميدان . فقد طالما نقد على صفحات « الاديب » الآثار القصصية التي تصدر بين حين وآخر وحلّل لنا نقاطها الفنية ، فاجاد في النقد والتحليل اكبر الاجادة .

اما كتابه الجديد هذا فقد احتوى على عشر قصص ، طرق في كل قصة منها غرضاً معيناً وابدع فيه ، الا انه هدف قبل كل شيء الى تصوير العواطف الجنسية وتحليلها . ومن المعلوم ان للناحية الجنسية خطراً كبيراً في مجرى الحياة الانسانية وتأثيراً بالغاً في كيان الاسرة ، وقليل هم اولئك القصصيون الذين تصدّوا لمعالجة هذه الناحية وحللوها على خير ما يُرام . اما الاستاذ سهيل فقد درسها – على ما يبدو لي – دراسة عميقة ، ثم شيّد كيان قصصه على ما توصل اليه من نتائج بعد تلك الدراسة . وقد لاحظت ان معالجة هذه الناحية قد شغلته نوعاً ما عن التطرق في قصصه الى معالجة مشاكل المجتمع الاخرى . ومع ان الناحية التي التزم تحليلها في معظم أقاصيصه هذه ناحية حيّة كما ذكرت ، الا انني اؤاخذه على هذا الانصراف عن دراسة مشاكل المجتمع الباقية ، وآمل ان يعوّض ما فاته من معالجة هذا الغرض في أقاصيصه الاخرى .

ويطول بي الحديث كثيراً اذا ما تصديت لكل قصة من قصص هذا الكتاب وحللت ما فيها من نقاط فنية . ولذلك فسأقتصر على تناول البعض منها بالتحليل المقتضب .

وعندي أن ابدع تلك الاقاصيص هي قصة « اشواق » . فلقد بذل الاستاذ سهيل في صوغها وتصوير العواطف التي تموج بها من عنايته واهتمامه ما جعلها تحفة فنية نادرة ، ويتركز ابداعه فيها في تصوير عواطف بطلتها « سمية » . . . تلك الفتاةُ الناهدة التي تفتح قلبها للحب فلم تشأ لها الظروف الا ان تحب الشاب الاعمى الذي كان يعلمها الموسيقى . وقصاصنا سهيل ينهمك في التعرض لعواطفها في دور نضوجها هذا فيصوّر لنا احلامها وآمالها وخلجات نفسها ، ثم ماذا ألم بها من احاسيس عندما عرفت انه أعمى ، وكيف تصارعت العواطف في قلبها حتى انقلبت حباً عنيفاً لذلك المعلم .

وبعدئذ انصرف الاستاذ سهيل الى تحليل عواطف بطل قصته الثاني وهو شفيق معلم الموسيقى . ذلك الاعمى المسكين الذي وقع في حب تلميذته « سميّة » فلم يجسر لسانه على البوح بذلك الحب ، بل راح جسده يعبر عنه باختلاجات وارتعاشات تتملكه كلما حدّث « سمية » او حدثته ، وكلما دخل دارها او خرج منها . ثم لم يجد اخيراً الا ان يصوغ عواطفه في قطعة موسيقية اسماها « أشواق » عبر فيها عن حبه وألمه ولوعته أروع تعبير وأهداها لمن أوحتها له ، ولكنه آثر ان لا يلتقي بها بعد ذلك مطلقاً . وقرر ايضاً ان يهجر تعليم الموسيقى وينصرف عن الدنيا وما فيها وان يقتصر على مصاحبة كمانه لا لشيء الا ليعزف به « أشواق » .

وهكذا ترى ان هذه النهاية لتلك القصة التحليلية الرائعة كانت في غاية الفن . . وليس فيها ما يشذّ عن الطبيعة البشرية اطلاقاً . ويتبين ان هذه القصة التي تموج بالعواطف اللينة الرقيقة طوراً ، وتزخر بالاحاسيس المصطرعة الثائرة طوراً آخر ، موفقة في كل مقوماتها ، وفي لغتها الموسيقية واسلوبها الرائع .

وتلي « اشواق » في القيمة قصة « صراع » . وهي قصة اجتماعية رائعة التصوير . فقد رسم لنا المؤلف فيها المزالق التي

تهوي بالشباب الى خضم الرذيلة ، ووفق في الرسم كما وفق في التحليل ، وخصوصاً تحليل ظروف بطلها «حسني» . ولولا انه حشر فيها شخصية تلك الفتاة الطاهرة التي أحبها «حسني». وظل يحبها ويقدّرها طيلة حياته ، ويعتبرها رمزاً للطهر والعفاف على الرغم من ان معرفته بها لم تتعدّ حدود النظرات ، وعلى الرغم من انه لم يرها الا مرة واحدة في حياته، أقول لولا حشر هذه الشخصية لتعالت القصة عن كل مأخذ ، ومع ذلك فأن ما فيها من روعة تصوير لعواطف الشباب الزاخرة ، وما فيها من سبك وانسجام يأخذ بالالباب ، كل ذلك سما بها الى مقام شاهق من الفن الرفيع.

ويعجبني في اسلوب المؤلف « البساطـة ». اذ ترى ان كل حركة من حركات ابطالها حركة طبيعية . وهذا الاسلوب يجعـل من قصصه قطعاً زاخرة بالحياة ، فلا يصطدم القارىء بشخوص قصة آلية يحرّكها المؤلف من وراء الستار ويدفعها الى الحركة دفعاً ، وهذا هو منتهى الفن في القصة ، اذ ان لحيوية ابطالها شأناً كبيراً في وقوعها موقعاً حسناً من نفس القارىء ، وفي تقريبها الى الواقع في ذهنه .

وفي قصتنا المذكورة تعرّض الاستاذ سهيل الى وصف راقصة والى تصوير نفسيات جمهور المتفرجين تجاه رقصها ، فصـدق في الوصف والتصوير كل الصدق .

وفي قصة « ظامئات » بلغ تصوير أديبنا لعواطف الفتيات المتأججة منتهى براعته ولكنه لم يكن يهوّل تصوير تلك العواطف اطلاقاً ، وانما كان يعبر عنهـا أصدق التعبير ويرسمهـا أدق رسم . وقد يرى البعض من اضطرام عواطف الطالبات اللواتي احببن الاستاذ ناجي ما يشككه في اخلاص الكاتب في نقلها ، ولكن من درس تلك العواطف حق الدراسة لا يؤاخذ المؤلف اطلاقاً على تصويرها بذلك العنف .

وهناك صورة طريفة جداً اراني ملزماً ان اذكرها هي قصة « امرأة » . فقد سجّل لنا فيها المؤلف درساً اجتماعياً طالمـا طالمـا أهمل الناس الاخذ به في كل بلد لم ينل حظاً وافراً من الحضارة ، هو حرية الزواج . ومع ان القصاصين كثيراً مـا طرقوا هذا الغرض في أقاصيصهم ، الا انـه ابدع فيه ايمـا ابداع ، فقد صوّر في القصة فتـاة رائعة الجمال شديدة الحيوية في الثامنة عشرة من عمرها ، اضطرتها اسرتها الى الزواج من كهل قضى اربعين سنة من عمره يرتشف من منهل الحياة ما كان حسبه حتى ارتوى فقدم يطلب في كنفها ان ينهي ايامه الباقيات في وداعـة وسكون واضمحلال ، في حين كانت هي في اهابها روحاً تثور وقلبـاً يضطرم ودماً يغلي . ومن اجل ذلك تعذبت امرّ العذاب في مقتبل حياتها الزوجية وكرهت زوجها اشد الكراهية . ولكنها وجدت اخيراً أن اسلوبها هذا لا طائل تحته، فراحت تعذب جسدها حتى استطاعت ان تتغلب عليه . ورزقت طفـلة فانصرفت الى الحدب عليها ، ومرض زوجها فانهمكت في العناية به ، فساعدها كل ذلك على الانتصار على عاطفة جسدها المشبوبة . وتتـابعت الاعوام ، فمات الزوج ، ونمت الطفلة حتى باتت فتـاة مكتملة النضوج . وجاء اخيراً من يخطب الفتاة فتم الاتفاق بين الاسرتين . .. وراح الخطيب الشاب يتردد على دار خطيبته وامها ترحب به اعظم الترحيب ، حتى حل ذلك اليوم ... وكان الخطيب سعيد قد اختلى بخطيبته وداد في غرفتها ، فدخلت عليهما الام فجأة ورأته يقبلها . وهنا يتجلى ابداع الاستاذ سهيل : فقد استيقظت حينذاك غريزتها ، وشعرت بغيرة عمياء من ابنتها التي تتمتع بقبلات خطيبها الشاب الجميل . فانقضت على ابنتها وداد واوسعتها لكماً وضرباً ورفساً . ثم تحولت الى خطيبها سعيد فطردته من الدار شر طردة . وتكررت تلك الحادثة فضجر الخطيب وفسخ الخطبة اخيراً . . . وكانت وداد تحب خطيبها سعيد أعمق الحب، لذلك أدى بها خبر فسخه للخطوبة الى الجنون . ولم يقتصر الامر على اصابتها بالجنون ، وانما القت بنفسها في النهـاية من شرفة الدار فتحطم جسدها .

وفي هذا الجزء من النقد سأمر على القصص الاخرى مراً سريعاً :

ففي قصة « راحة الضمير » صوّر لنا المؤلف العـاطفة النقية البريئة . . عاطفة تلك القروية الساذجة التي احبت ربيب بيروت، ولكن قسوة قلبه صرفته عنها فتناولت ابسط السبل اليهـا للتعبير عن خيبتها في حبهـا وتأثير تلك الخيبة في نفسهـا ، وهو الانتحار .

ولغة هذه القصة كانت ارقى من لغة باقي القصص ، وكانت مليئة بأوصاف رائعـة للمناظر الطبيعية تسحر اللب وتنتزع الاعجاب .

وفي قصة « تفتح وردة» صور المؤلف عاطفة فتاة في مكتمل نضوجها قد تدافعت موجات الحنين عندهـا فصدق في تصوير احساساتها ، وساق لنا حادثة يتكرر وقوعها ولولا انه حلل هذه

الناحية وعاود تحليلها كثيراً في اقاصيصه الاخرى لارتفعت القصة الى مقام رفيع من الابداع والطرافة .

واما في قصة « تذكار ثورة » فقد رسم لنا صورة صادقة للوطنية الحقة متمثلة في بطلها «هاني» . وانه لأسلوب رائع ذلك الذي اتبعه في قصته هذه لايقاد الحماسة في قلوب شباب الوطن وللاهابة بهم الى التضحية في سبيل البلاد .

واما فيما يتعلق بقصة « امومة » فقد كانت تحمل روحاً غير التي تحملها اقاصيصه الاخرى ... روحاً تعتمد على المصادفات الشاذة والشبه العجيب بين شخص وآخر ، وعندي ان امثال هذه القصص تبتعد بمؤلفها عن الواقع وتشذ به عن الحقيقة . ولا يجدر بقصاص مقتدر ان يعتمد عليها لانها تفسد فنه .

ولولا ان قصة « امومة » تعتمد على مثل تلك المصادفات في تشابه شخصين كل المشابهة وهما لا يمتان بأحدهما الى صلة، لكانت القصة في المرتبة الاولى من القصص التحليلية ، لانه برع في تصوير عاطفة الامومة اعظم البراعة واجاد كل الاجادة .

ومما اؤاخذ عليه المؤلف في قصته « نداء الاعماق » الصورة التي تم بها اتصال « ليلى » بـ« يوسف » . فليلى فتاة مترمتة قد آلت على نفسها الا تتصل بأي شاب لئلا يفسد طهرها . فكيف يمكن ليوسف ان يذهب بها الى داره في مدة قصيرة لا تتعدى القاء السلام، فتاة تحمل تلك العقيدة كليلى لا تصاد بهذه السهولة .

ولكن هذه النقطة الضعيفة لا تمنعني من الاعتراف بان حوادث القصة الاخرى ونهايتها كانت على جانب كبير من الروعة والانسجام ولم يكن فيها شيء لم يوفق الكاتب فيه غير بدايتها .

واما قصة «هي وكلبها» فلست أود التحدث عنها لانها –بعبارة مختصرة – غلطة من غلطات المؤلف ! فقد شاء ان يصور لنا عاطفة الحيوانات–عاطفة كلب–فتخبط من اجل ذلك في موضوع تافه ، وسجل قصة تحمل اسمه ، ولست ادري هل قلد الاستاذ سهيل اسلوبا غربياً من حيث تحليل نفسيات الحيوانات، أم أراد أن يمزج بين العلم والأدب فأتحفنا بدرس عريض عن نفسية الكلاب ! . .

***

واود ان ألفت نظر القارىء – قبل ان أختم النقد – الى ان اللغة التي سجل بها الأستاذ سهيل اقاصيصه لغة على نصيب وافر من الرشاقة والجمال ، الا أنه استعمل بكثرة لفظة « أنحى » حتى كان بعض الأحيان يكررها بضع مرات في القصة الواحدة . وهي لفظة لا تلائم اسلوبا قصصياً رشيقاً كاسلوبه، كما أنه استعمل بكثرة ايضاً كلمة « زعيم » بمعنى « كفيل » ، ونصيب هذه اللفظة من النجاح في فنّ القصة كنصيب أختها .

على أنه ابتدع كذلك عبارات حلوة تنتزع الاعجاب انتزاعاً، ولا يسعني اخيراً الا ان اقول ان مجموعة « أشواق » نصر عظيم للقصة اللبنانية .

الحلة – العراق شاكر خصباك

العرب في طريق الاتحاد

للاستاذ محمد شاكر الخردجي – ٣٩٢ صفحة – مطبعة ابابيل دمشق

تقسم العلوم الى قسمين رئيسيين–قسم يشمل العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزيا وعلم الفلك والجغرافية وعلم الحيوان وغيرها، وقسم يعرف بالعلوم الاجتماعية كالتاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والاقتصاد وسواها . وتختلف العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية اختلافاً بيّن الاثر فبينما الظواهر الطبيعية تخضع لنواميس وقواعد ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، تتأثر الاجتماعيات بعوامل كثيرة ومتنوعة تجعل الوصول الى قواعد مضمونة التطبيق في كل الحالات امراً بعيد الاحتمال صعب المنال . ومن جهة اخرى يمكن في العلوم الطبيعية ان تجرى التجارب وتستخرج النتائج والقواعد في مختبر ، بينما يستحيل اختبار اي مبدء سياسي او اقتصادي الا بتطبيقه عملياً في مجتمع معين ، وعندئذ يجب تحمل نتائجه مؤاتية كانت او غير مؤاتية .

ولكن منذ امد غير قصير وذوو الاختصاص يعملون على ادخال الطريقة العلمية الى العلوم الاجتماعية فيتحرون الحوادث والاوضاع بدقة ويراقبون سير الاعمال ويدرسون الاتجاهات في مختلف نواحي حياة الانسان الاجتماعية ثم يستنتجون النتائج والقواعد العلمية . وما كانت الاجتماعيات لتسمى بعلوم لولا الطريقة العلمية الحديثة .

والاحصائيات هي في مقدمة وسائل الطريقة العلمية الحديثة وعندما تتكلم الارقام الصحيحة الدقيقة المبنية على المشاهدة والمراقبة والتحري يبطل التخمين والتقدير . وقد قامت لهذه الغاية في اوربا واميركا مؤسسات عديدة ولعل اشهرها مؤسسة غالوب في الولايات المتحدة . فهي تعنى بدراسة الرأي العام في القضايا الوطنية والعالمية العامة باستشارة عدد كبير من طبقات الشعب الاميركي . وكثيراً ما تنبأت مؤسسة غالوب باتجاه في السياسة او التشريع او الانتخاب .

خطرت لي هذه الامور بعد ان تصفحت كتاب « العرب في طريق الاتحاد » للاستاذ محمد شاكر الخردجي . فقد أخذ واضع الكتاب على نفسه ان يتبين آراء مشاهير العرب في موضوع الوحدة العربية فطرح سؤاله على ما يقرب من اربعمئة ملك ورئيس جمهورية ووزير ونائب ووطني واديب من مصر وفلسطين وشرق الاردن واليمن والمملكة العربية السعودية ولبنان وسورية والعراق .

ونظرة واحدة في فهرس الكتاب تكفي لان تقتنع معي ان بينها اعلاماً لعدد لا بأس به من قادة الرأي في العالم العربي — كل في بلده وبعضهم في كله . ولكن الذي لا شك فيه ان القائمة بعيدة عن ان تكون شاملة كما انها تحتوي اسماء اناس ، القضية العربية لا بل السياسة هي اخر ما يفكرون به .

لا شك في ان طريقة الاستاذ الخردجي هي محاولة انتهاج الطريقة العلمية الصحيحة في الدروس الاجتماعية ولا شك في انه عانى في سبيل غايته السامية من مشقات السفر ونفقات الانتقال وصعوبة الاتصال بهذا العدد الكبير من الشخصيات ما يعدل ما يعانيه العالم في الطبيعيات من السهر المضنك والبحث الدقيق والتجارب العديدة والجهد الطويل في مختبره او حقله فلا عجب اذا جاء كتابه متضمناً فوائد لا غنى عنها لكل عامل في السياسة العربية .

ولقد كان بالامكان الوصول الى نتائج ادق واصح لو قسم الاستاذ الخردجي سؤاله العام الى ثلاثة او اربعة اسئلة ووضعها كتابياً بين ايدي الذين قابلهم ، لامكن عندئذ تحديد فكرة المجيب عليها بالضبط ، ولما تمكن البعض من ان يتخلصوا من الجواب بالدعاء او بالتمنيات او بوضع الشروط .

وفات الاستاذ الخردجي ان يصنف الاجوبة التي حصل عليها والآراء التي اثبتها ويستخرج منها الخلاصات . وعلى سبيل المثال لما اقصد ولما في معرفة آراء بعض قادة الفكر والسياسة في لبنان في الوحدة العربية من فائدة سأضع امام القارىء الكريم ملخص دراسة الاستاذ الخردجي في لبنان .

لقد سجل الاستاذ الخردجي في لبنان زهاء ستين رأيا لستين شخصاً منهم ستة لا يمكن تحديد الوضع السياسي الذي ينشدونه وهم السادة جوزيف نجار وهكتور خلاط وبهيج تقي الدين والدكتور نعمة نحو والمرحومان رشيد نخله ومصطفى الغلاييني .

اما القائلون باستقلال لبنان استقلالا تاما عن الاقطار العربية الاخرى فهم السادة جبرائيل المر وجورج عقل وجورج زوين وأسعد البستاني والمطران مكسيموس صايغ وبيار الجميل . ويأتي معهم من حيث استقلال لبنان السياسي فقط مع انشاء وحدة اقتصادية وثقافية او تحالف عسكري مع الاقطار العربية اربعة يرأس قائمتهم صاحب الغبطة البطريرك انطون عريضه ثم السادة كمال جنبلاط ووديع الاشقر والدكتور فؤاد عسيران .

اما الذين يؤمنون بالوحدة العربية ويعتقدون انها صائرة او يجب ان تصير او الذين يضعون بعض الشروط للوصول اليها ، ونحن نعرف انه يلزم ان تكون هناك شروط عديدة قبل ان تصبح اهلاً لها وتصبح ممكنة ولذا نعتبرهم من المؤمنين بها ، فينقسمون الى قسمين قسم ينشد الوحدة العربية بدون تحديد شكل الحكم وقسم يرسم الوحدة على اساس الاتحاد اللامركزي (فدرال) . فالفئة الاولى تضم السادة عبد الحميد كرامي ، الامير خالد شهاب ، جورج كفوري ، روكز ابو ناضر ، احمد الاسعد ، ابرهيم المنذر ، رشيد بيضون ، أسكندر البستاني ، نجيب نكد ، اديب الفرزلي ، عيسى اسكندر المعلوف ، محمد علي الحوماني ، الياس ابو شبكة ، فؤاد حبيش ، يوسف حنا الخوري ، دعيس المر ، سعيد زين الدين ، نجيب الصايغ ، فؤاد رزق ، جميل المكاوي ، اميل يزبك ، فهيم الخوري ، نقولا ربيز ، يوسف جتي ، عبد اللطيف بيسار ، نجيب علم الدين ، عز الدين العمري ، انطون ثابت ، والمرحومان سليم علي سلام وامين الريحاني والسيدتان نجلا كفوري وجوليا دمشقية والآنسة عفيفة صعب .

اما الاتحاديون فهم السادة جبران التويني ، اميل لحود ، جميل تابحوق ، بترو طراد ، نسيب غبريل ، جرجي شاهين عطيه ، عمر الداعوق ، حسين العويني ، ميشال فرعون ، حليم النجار والسيدة ايفلين بسترس ووديع نعيم (يدعو لجامعة عربية) .

اذن فمن اصل خمسة وخمسين شخصاً في لبنان لرأيهم وزن في سياسة لبنان وتوجيهه خمسة واربعون يدعون للوحدة او الاتحاد مع الاقطار العربية وعشرة فقط يطلبون انفصاله عنها .

الشويفات — محمود خليل صعب

هذه هي الديموقراطية

تأليف الدكتور بنيش ، ترجمة الاستاذ حسن صعب

١٧٦ صفحة — دار العلم للملايين — بيروت

تجتاز بلادنا في هذه الحقبة من حياتها ، مرحلة دقيقة خطيرة ، هي مرحلة الكفاح لتوطيد الانتصارات الوطنية التي احرزتها وصيانتها

من كل خطر يترصدها او عدوان يتهددها ، وبناء الاستقلال الذي تمتعت به على اسس ديمقراطية صحيحة تجعل منه نعمة لجميع الوطنيين ، والدخول الى الميدان الدولي كدولة حرة من كل قيد مساوية لغيرها من الدول تنهج في سياستها الخارجية نهجاً يلائم مصلحتها الوطنية ويتفق مع حرصها الشديد على السلم والحرية . وليست هذه المهام التي تضعها الحياة على عاتق بلادنا بمهام يسيرة ترتجل حلولها ارتجالاً ، بل هي مهام جسيمة تقتضي كثيراً من الجهد والدأب والاخلاص في العمل ، وتقتضي قبل هذا كله ثقافة سياسية نعرف في ضوئها حقيقة العالم الذي نلابسه ، والقيم التي ينهد اليها ، والانظمة التي يعيش في ظلها ، والمبادىء التي تتصارع فيه ، كما نستطيع تعيين المكان الذي نريده لبلادنا ، واختيار النهج الذي يوافق اوضاعنا وحاجاتنا ومطامحنا .

وهذه الحاجة التي نحسها الى الثقافة السياسية ، سواء منا الوطنيون العاديون او القادة المسؤولون ، قد دفعت دار العلم للملايين الى التفكير في اصدار سلسلة من الكتب بالتعاون مع نخبة من الكتاب المستنيرين ، تعالج المشاكل العالمية الكبرى ، وتعرض التيارات الفكرية المتضاربة ، «ابتغاء اقامة الوعي القومي عند الاجيال العربية الحديثة على اساس من الثقافة الصحيحة المقارنة» كما قالت هذه الدار في التعريف بها .

وهي خدمة كبرى تؤديها للنهضة العربية ، اذا حرصت على اختيار الكتب التي تفيد هذه النهضة ، وكانت «موضوعية» في هذا الاختيار اذا جاز هذا التعبير ، ولم تقصر اتجاهها على ناحية من نواحي العالم او مذهب معين من مذاهبه الفكرية والسياسية .

وقد استهلت دار العلم للملايين سلسلتها السياسية بكتاب « هذه هي الديمقراطية » للدكتور ادوار بنيش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، مترجماً بقلم الاستاذ حسن صعب ترجمة امينة دقيقة بلغة عربية ناصعة واسلوب متين جزل . والدكتور بنيش علم من اعلام الديمقراطية في العصر الحديث ، حفل ماضيه بالجهاد في سبيلها وكانت بلاده اولى ضحايا الديكتاتورية الفاشستية قبل الحرب العالمية الاخيرة فهاجر الدكتور بنيش وبين جنبيه ثورة مشتعلة الى الولايات الاميركية ولبث فيها يحاضر في جامعاتها الكبرى حتى قاربت الحرب على الانتهاء ، فعاد ليدخل وطنه مع الجيوش التي حررتها من النير الهتلري ، وليعاود كفاحه لاقامة نظام اجتماعي عادل في بلاده .

ويضم الكتاب الذي نحن بصدده نخبة من تلك المحاضرات التي القاها بنيش في اميركا ، وقد كتب اكثرها قبل الحرب وبعضها في اثنائها ، وكتب مقدمة الطبعة الفرنسية التي نقلت الترجمة العربية عنها في سنة ١٩٤٤ والحرب وشيكة الانتهاء ، وتدور هذه المحاضرات كلها حول الديمقراطية الحديثة وتطورها كفكرة وكأسلوب في الحكم ، منذ نشأت على انقاض الاقطاعية في احضان الثورة الفرنسية الى ان توطدت اركانها بعد الحرب العالمية الاولى منوهاً بالعوامل التي ساعدت على نموها وازدهارها مشيراً الى الازمات المختلفة التي تعرضت لها ، واهمها الازمة التي هددت بفنائها بعد نشوب الديكتاتورية الفاشستية في اوربا .

ومؤلف الكتاب قوي الايمان بالديموقراطية عظيم التفاؤل بمستقبلها ، رغم جميع الصعاب التي تعترض تقدمها ، وهي تمثل في نظره القمة في سلم البناء الاجتماعي ، ولكنه لا يعتقد انها قد بلغت هذه القمة بعد ، لانه يرى الى ما خلقته الثورة الصناعية وتطور الاساليب الادارية نحو تنظيم العمل وتقسيمه « من مشاكل جديدة للانسانية يبرز في مقدمتها تركز السلطة السياسية في ايدي فئة من الافراد الاقوياء يتسنمون ذروة من الهرم الاجتماعي » ويعتقد ان على ديموقراطية المستقبل ان تبلغ تلك القمة « ان تؤمن لابناء الامة الواحدة المساواة الفكرية والاقتصادية مع المساواة السياسية التي حملتها اليهم في الماضي . وعليها ان تدرك جيداً ان المبادىء الديمقراطية يجب ان تتعدى حياة الامة لتصبح شريعة سياستها » .

ويحدد الدكتور بنيش الاهداف التي يجب ان يؤدي اليها انتصار الديمقراطية في الحرب العالمية الثانية بهذه النواحي الثلاث :

١ — تهديم الوطنية الاشتراكية والفاشستية والقضاء على جميع النزعات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي خلقتها ، وبعث القيم الروحية والفكرية التي تعيد الى اوربا حياتها الديموقراطية ، وتعيد اليها اسمى ما يصبو اليه الانسان الا وهو الحرية السياسية والاجتماعية والحرية الروحية والخلقية . ٢ — اعادة تنظيم اوربا والعالم تنظيما سياسياً جديداً ، وذلك بتحرير الامم الصغيرة التي استعبدها المحور وايجاد هيئة عالمية جديدة تحل محل عصبة الامم وتكون اقدر منها على صيانة السلام ٣ — تجديد حياة الديموقراطية بحيث تصبح ديموقراطية اقتصادية اجتماعية الى جانب كونها ديموقراطية سياسية

ويتساءل المؤلف اخيراً : هل تستطيع الديموقراطية البورجوازية ان تتعاون بعد الحرب مع الاشتراكية السوفياتية ؟ ثم يجيب بان ذلك ممكن وضروري جداً لمصلحة السلم كما كان ممكناً وضرورياً اثناء الحرب « . . لان بينهما من وجوه الائتلاف بقدر ما بينهما من وجوه الاختلاف . ومن الواجب ان تصبح وجوه الاختلاف هي الحكم في العلاقات بينهما » .

جولة الأديب في شهر



بقلم الآنسة فلك طرزي

لم يكن مستغرباً ان تسعى بيروت بأجمعها مساء اليوم الثامن من كانون الثاني، لسماع واحد من اولئك الذين اتصلوا بصميم الانسان ايا كان واينما كان. فان شهرة دوهاميل كأديب حاول ابداً في شتى ما كتب من قصة او بحث ان يكشف عن طوية الانسان وينفذ الى سريرته، لهي شهرة لا جدال فيها ولا ريب. فكل من قرأ هذا الاديب واتصل به عن طريق الفكر والشعور، تأثر بنزعته الانسانية المتطرفة التي تهدف ابداً الى استقصاء الدوافع الخفية التي تملي على الانسان مختلف تصرفاته، سواء أكانت هذه التصرفات تتعلق بحياته الخاصة ام العامة، واثار اهتمامه يقينه بان الانسان في كل ما يصدر عنه من خير او شر انما هو مسير لارادة اقوى من ارادته، وان قوة خفية يغيب عنه علمها، تقوده في هذا السبيل وتحول به عن ذلك. فليس اذن من الانصاف ان نقسو باحكامنا على اولئك الذين دهورتهم الحياة وظروفها في اودية الشرور، فان قضية مصيرهم قد خرجت عن نطاق ارادتهم وليس لهم سلطة على تحويلها الى الجهة التي يبتغونها.

وموقف دوهاميل اليوم من جماعة الكتّاب الفرنسيين الذين تعاونوا مع الألمان ودفاعه عن تصرفاتهم خلال مدة الاحتلال يثبت هذه الناحية الرئيسية من ادبه التي عالجها في معظم ما انتج ولهذا وصفت انسانيته بالمتطرفة لان التطرف في كلتا الناحيتين يفقد المرء سلامة التحكيم: فان كانت السعة تطبع هذا التطرف، فان الفوضى لا تلبث ان تسيطر على التفكير، فتفقده بعض سلامته وان كان العكس اي ان كان الضيق هو الذي يطبعه فسرعان ما يتلبد الفكر ويفقد حيويته، وكثيراً ما يلتقي الطرفان!

فالتطرف الانساني عند دوهاميل تطبعه السعة، والسعة بمعناها المطلق التي يخشى منها على معنى الانسانية المعتدل السامي. وهذا ما يفسر الخلاف القائم اليوم في فرنسا بين مدرسة الأدب الحديثة، والمدرسة القديمة التي تتألف من مورياك ودوهاميل وموروا وجول رومان الخ. هؤلاء الذين وان اختلفت طرق معالجتهم الموضوعات، وتفاوتت قيمهم يجمعهم مذهب: وخلاصة مبادىء هذا المذهب رسوخ الانسان ضمن الدائرة التي احيط بها مذ كان في التاريخ انسان يدور فيها ويدور ولكن حول نفسه ودون ان يتعدى دورانه هذه الدائرة. وكل ما يستطيع عمله بين الحين والحين، هو ادخال شيء من التعديل على الشكليات فحسب اما الاساس فثابت لا يتغير ولا يتحول. ولعل توقف ادبهم عند حد معين، يعود في الدرجة الاولى الى هذه النزعة التي تحدثت عنها فكأني بهم قد حبسوا انفسهم ضمن هذه الدائرة التي شاءوا ان يحصروا الانسان فيها، فلم يعد بامكانهم ان ينطلقوا منها ليتصلوا بآفاق جديدة يطلون منها على نور جديد يهديهم الى مناحي من التجدد والابداع.

غير ان جميع هذه الامور لا تتنافى مع كون دوهاميل اديباً من الطراز الاول له جولات رائعة في الادب التصويري وفي التحليل النفساني الدقيق. ولهذا لم يكن مستغرباً ان تستقبل بيروت هذا الضيف استقبالاً تجلت روعته باقبال جمهورها بل بتدفقه على سماعه وقد كنت بين هذا الجمهور من اكثر المتحمسات رغبة الى سماع اديب استرعى انتباهي مذ اخذت نفسي تهفو الى الادب اي مذ اخذ الحس الفني يستيقظ فيها. ولقد شهدت في هذا المساء كيف تتجلى الرغبة الجياشة في النفس عندما تنطلق من معقلها وتتفجر بالشكل الذي يتفق مع نوعها.

فقد تحولت قاعة سينما دنيا الى بحر تزخر فيه الامواج البشرية ما لبث هديرها ان تحول الى عاصفة من التصفيق انطلقت تحيي المحاضر، وتعرب عن مدى التقدير واللهفة. ومما لا شك فيه ان

هذه البادرة الحسنة من الجمهور قد طمأنت المحـاضر ومهدت له سبيل الاتصال بهم .

« مشكلات المدنية » هذا هو عنوان محاضرة دوهـاميل . وهذا هو الموضوع الذي شاق مئات من الناس وجذبهم الى قاعة سينما دنيا في ذاك المساء ، علهم يعرفون ما غمض عليهم من مشكلات مدنية اليوم ، التي احسوا بها وابتلوا بمساوئها ، ولكنهم قلما يلمسون مصدر هذه المساوي . .

ثم ان موضوعاً كهذا الموضوع ، يوحي في النفس معاني تتعلق بصورة مباشرة بحياة الانسان واوضاع هذه الحياة ، وبكل ما يتصل بها من عوامل نفسية واجتماعية وسياسية وثقافية ، كما يوجه الذهن من ناحية ثانية الى تقدير الاساليب التي قد يفسر بها المحاضر بواعث هذه المشكلات .

غير ان المحاضر عوضاً عن ان يصدق الحدس ، ويحقق الآمال ، خيبها قليلاً : فقد قرب الكأس من الفم الظمآن ولكن دون ان يرويه ، ودار حول الموضوع دون ان ينفذ الى صميمه .

اما تصميم المحاضرة فكان على الشكل الآتي :

١ — تحديد معنى المدنية .

٢ — تقسيم الموضوع الى قسمين : مادي ومعنوي .

٣ — الخاتمة ، وتتلخص في ان حفظ التراث المدني للانسانية جمعاء ، يعود الفضل فيه الى حركة المقاومة التي قامت في فرنسة على اثر احتلال الالمان اياها خلال شهر حزيران سنة ١٩٤٠ .

اما تحديد معنى المدنية ، وهو اول نقاط المحاضرة ، فقد وفق المحاضر في اصابة المرمى : اذ فسر المدنية بأنها « توازن بين النظام والفوضى » و « توازن بين الهدم والبناء » .
ثم انتقل من تحديد مفهوم المدنية الى تقسيمها ، وقبل ان يحلل ويوضح كلا من القسمين : المادي والمعنوي فصل بين مدنية الانسان ومدنية الحيوان معللاً هذا الفصل بان الغريزة التنظيمية تنشأ في الحيوان وهو في دور التكوين الفسيولوجي ، بينما هذه الغريزة نفسها ترقى وتتطور في الانسان وفقاً للتطورات التي ترافق مراحل عمره وتفكيره فالفرق اذن بين مدنية الانسان ومدنية الحيوان ، هو العنصر العقلي الذي يطبع الاولى بطابعه


الآنسة فلك طرزي

الانساني . ثم اخذ يعالج القسم الاول من المدنيـة وهو القسم المادي ، ويوضحـه ، فذكر اولا العنـاصر الرئيسية التي يتألف منهـا هذا القسم وهي : النار والنور والآلة . ونوه ولكن في اقتضاب ، بالصلة التي تربط المدنيتين ، وقـال ان كليهما مرتبط بالآخر ، ثم مـا كاد يخرج من تحديد المدنية وتقسيمها ، ليدخل في تفصيلات الموضوع ، حتى شعرنا به يشذ قليلاً عن السبيل المنطقي ويتغلغل في فروع ، ان كان لها علاقة بالاصل ، فمن بعيد . لقد كان منتظراً ان يكون حديثه عن القسم المعنوي من المدنية ، حديثا مشبعاً يرضي رغبة المعرفة في المستمع . لكنه عوضاً عن ان يتناول بالتحليل العلمي الدقيق اهم مشكلات العصر اي هي اهم مشكلات الانسان المتصلة مباشرة بكيانه الانساني وبصفته كائناً حياً في الوجود ، له آمال ورغبات ومطامح وعوضاً عن ان يتطرق الى تلك المعضلات التي نشأت عن الحرب فيوضحها ، ويفندها ، ويظهرها على حقيقتها ، وعوضاً عن هذا وذاك ، تحدث عن بعض قضايا المدنية (وتعتبر هذه ثانوية بل تافهة نسبة للرئيسية) مكتفياً بذكرها وبتنبيه الجمهور الى اخطارها . كأن اساليب الصحف في توزيع المقالات بين الصفحة والصفحة مثلاً ، يؤلف خطراً فادحاً ، او كأن نشر العناوين الضخمة يكون مشكلة مدنية لا تشبهها اية مشكلة ! ولعل امتناع دوهاميل عن القبض على زمام الموضوع ، ثم معالجته اياه بهذا الشكل السطحي المفكك ، كأن شيئاً مقصوداً ، او شيئاً يتمشى مع نزعته الادبية ، ومذهبـه الاجتماعي اللذين تحدثت عنهما مطولا في هذا البحث . ففي فرنسا اليوم نزعتان سياسيتان وادبيتان تتنازعان البقاء والنفوذ : اما الاولى فهي نزعة الراديكالية المحافظة ، والتي يمثلها في السياسة : حزب الحركة الجمهورية الشعبية -- ويمثلهـا في الادب : مورياك ودوهاميل ورومان الخ . . واما الثانية فهي النزعة اليسـارية المتطرفة ويمثلها في السياسة : الحـزب الشيوعي الفرنسي ، وفي الادب : آراغون -- ايلوار — كلود مورغان الخ . .

اما النزعة الاشتراكية ، فليست لها صبغة خاصة تتميز بها ، لأنها مزيج من مختلف النزعات وغالباً مـا تنحاز في الظروف الحـاسمة الى جهة اليمين .

وقد تجلت نزعة دوهاميل اليمينية المحافظة بشكل صريح في محاضرته ، عندما تحدث مثلاً

عن اثر المؤسسات الدينية الفعال (ونحن في القرن العشرين !) في حفظ دعائم المدنية الروحية بنشرها المحبة ، والرحمة بين الناس ، وتجلت ايضاً عند مـا كان كلامه يتناول قسم المدنية المعنوي ، فقد قال بهذا الصدد : ان الانسان لشغوف بالاحتفاظ بكل ما يملك ، ولكن هذا التصريح قد حمل جماعة اليسار على وصفي بالمحافظ ، فانا لست محافظاً بالمعنى الذي يقصدون،الا انني لا اتقبل الا بتحفظ ما تمنحني اياه المدنية الحالية .

فنسبة نزعة التملك او التمسك بالملكية دون تحديد مصدر هذه الملكية ونوعها الى نزعة روحية في الانسان يبرر كل عمل قد يصدر عن المسؤولين في سبيل التمسك باشياء قد يملكها واحد من الناس — وقد تكون مغتصبة — او فئة من الناس سواء في داخل بلاده ، ام في خارجها ، وهذا هو الذي يفسر سر معـالجة موضوعه بهذا الشكل السطحي . فهو لا يستطيع ان يثير حيال هذا الموضوع مشكلات المدنية الحقة : لأن اثارة مثل هذه المشكلات تتنافى مع مبادىء مذهبه ، ومذهب جماعته في السياسة والادب ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهو يأبى الا ان يكون مخلصاً تجاه نزعته الادبية التي ذكرتها آنفاً ، فان هو تحدث عن المشكلات التي تؤلف السبب الرئيسي لاضطراب اوضاع المدنية ، فان اثارة مثل هذه المشكلات ثم تحليلها وابراز براعتها يعرضه الى نوع من التحيز وهذا التحيز يضطره الى اتخاذ وضعية الحكم بين طرفين ، وهذه الوضعية بدورها تلزمه اخذ جانب ليس هو على الاغلب بجانب جماعته .

فنزعته الانسانية المتطرفة اذن قد اتسعت الى حد انتهى بها — اي بهذه النزعة — الى حد الضيق . فامتناع دوهاميل عن اتخاذ وضعية الحكم يهدم بصورة مباشرة مصالح اقلية ضئيلة دون اكثرية ساحقة . وهذا بعيد عن معنى الانسانية الصحيح !

وبعد فانني لم اذكر بهذه العجالة سوى بعض الخطوط الرئيسية من المحاضرة : وقد خلص منها الحاضر بهذه النتيجة التي لا تمت كثيراً الى الحقيقة : ان حفظ التراث المدني الانساني من الخطر الالماني يعود الفضل فيه الى فرنسا وحدها التي لولا حركة المقاومة التي انبعثت منها على اثر الاحتلال الالماني ، لكانت معالم هذه المدنية اثراً بعد عين .

ولعلي انقل في مناسبة ثانية ما دار بينه وبيني من حديث في شؤون تتعلق بقضيتي الاسلام والشرق الاوسط .

دمشق — فلك طرزي



٣١ كانون الاول سنة ١٩٤٦ – تم جلاء الجيوش الاجنبية عن اراضي لبنان

– اتفقت بريطانيا واميركا على استمرار التعاون بسلاح الطيران .

اول كانون الثاني سنة ١٩٤٧ – حلت سوريا وبلجيكا وكولومبيا محل مصر وهولاندا والمكسيك في مجلس الامن .

– احتفل لبنان بعيد الجلاء وقد ازاح رئيس الجمهورية الستار عن اللوحة التذكارية التي اقيمت في نهر الكلب لتخليد ذلك الحدث العظيم .

٣ – رفض الاتحاد السوفياتي والدول الواقعة تحت نفوذه في اوروبا الشرقية الاعتراف بجمهورية الفيليبين .

– طلبت اميركا من الاتحاد السوفياتي رسمياً فتح المفاوضات بينهما لتصفية الديون .

٦ – ألقى ترومان خطاباً في جلسة مجلس النواب والشيوخ المشتركة جاء فيه : ان استقرار السلم من مصلحة اميركا وروسيا رغم خلافاتهما

– قررت الجامعة العربية الاشتراك في موءتمر لندن لحل القضية الفلسطينية

– وجهت فيات نام نداء الى الولايات المتحدة تلفت فيه نظر هيئة الامم المتحدة الى الوضع الراهن في الهند الصينية .

٧ – اعلن حزب الاتحاد الديمقراطي وحزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني مقاطعة الانتخابات النيابية في العراق .

– ادلى البنديت نهرو بتصريح اعلن فيه استنكار الهند لمحاولة فرنسا في القضاء على حكومة فيات نام الوطنية .

– وصل الملك عبدالله الى انقره

٨ – دعت وزارة الدفاع الفرنسية جميع القوات الفرنسية في فرنسا وغيرها ان تكون على تمام الاهبة للقتال لخطورة الحالة في الهند الصينية .

٩ – استلمت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة من الجامعة العربية تطلب فيها السماح للحاج امين الحسيني بالعودة الى فلسطين .

– اسندت وزارة الخارجية الاميركية الى الجنرال مارشال بعد استقالة المستر بيرنز

١٠ – اعلن وزير الاسطول الاميركي ان الولايات المتحدة لن تتخلى عن مصالحها ونفوذها في اوروبا وآسيا .

١١ – ارسلت الحكومة الانكليزية دعوة خالية من كل شرط الى اللجنة العربية العليا بفلسطين لحضور موءتمر لندن .

– استقبل ستالين الفيلد مرشال مونتغمري في قصر الكرملين ودامت المقابلة بينهما ساعة ونيفاً .

١٣ – قررت الهيئة العربية العليا في فلسطين قبول دعوة بريطانيا للاشتراك في موءتمر لندن .

١٤ – افتتح المستر بيفن موءتمر وكلاء الخارجية بخطاب رجا فيه الوكلاء ان يتوصلوا الى تسوية المسألة النمساوية

١٥ – اتفق ليون بلوم والمستر اتلي على وجوب عقد حلف فرنسي بريطاني باقرب فرصة ممكنة .

– ارسلت بريطانيا مذكرتها الثالثة الى الحكومة البولونية احتجاجاً على الطريقة التي تتبعها في الاستعداد للمعركة الانتخابية .

١٦ – انتخب فنسان اوريول رئيساً للجمهورية الفرنسية الرابعة .

– قرر وكلاء خارجية الدول الاربع الكبرى اعادة بناء النمسا على اسس ديمقراطية .

– تلقى ملوك الدول العربية وروءساء جمهورياتها دعوة من الملك عبد العزيز آل سعود لعقد موءتمر في الرياض لبحث القضايا العربية وخاصة مشكلة فلسطين .

١٧ – فاز حزب قوام السلطنة في الانتخابات الايرانية بعد ان تصدعت صفوف المعارضة .

– قدم المستر ترومان لمجلس الامة مشروعاً لتوحيد القوات البحرية والبرية والجوية الاميركية .

١٨ – قدم بيترونيني مدير الخارجية الايطالية استقالته .

٢٠ – وقع المستر بيرنز وزير الخارجية الاميركية المستقيل معاهدات الصلح الخمس مع ايطاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا .

– قدمت الحكومة الايطالية استقالتها نظراً لاضطراب الحالة السياسية في ايطاليا .

٢١ – انتخب ادوار هريو رئيساً للجمعية الوطنية بالاكثرية الساحقة

٢٢ – الف المسيو بول راماديه الوزارة الفرنسية .

– تبنت الجمعية الوطنية الهندية قرار نهرو وقررت اعلان الهند جمهورية مستقلة

– نال حزب قوام السلطنة الاكثرية المطلقة في الانتخابات الاخيرة في ايران

٢٣ – اتفق وكلاء وزراء الخارجية على الاعتراف بالنمسا دولة مستقلة ذات سيادة

– اتخذ مجلس النواب اللبناني قراراً بتأييد مصر في كفاحها .

– ارسل وزير الخارجية اللبنانية مذكرة الى مجلس وزراء الخارجية الاربعة الكبار يطلب فيها منح لبنان حق الاشتراك في وضع معاهدات الصلح مع المانيا .

٢٤ – كلف الملك جورج اليوناني السيد ديمتري ماكسيموس بتشكيل الوزارة اليونانية

– طلب مندوب استراليا في موءتمر وكلاء الخارجية جلاء الجيوش الحليفة من النمسا فور توقيع المعاهدة .

٢٦ – رفضت الحكومة المصرية الاقتراحات البريطانية الجديدة وقررت رفع شكواها على بريطانيا الى مجلس الامن .

٢٧ – اعلنت الحكومتان المصرية والبريطانية قطع المفاوضات الجارية بينهما لتعديل المعاهدة .

– افتتح موءتمر فلسطين في لندن ، وقدم السيد جمال الحسيني رئيس وفد عرب فلسطين الى الموءتمر بياناً اعلن فيه مقاومة العرب لمشروع التقسيم .

٢٨ – اعلن وزير الدولة البريطانية اللورد بثيل لورنس انه قد تم الاتفاق بين الحكومة البريطانية ووفد بورما بشأن مستقبل هذه البلاد .

– صدق المجلس النيابي المصري قرار الحكومة برفع النزاع المصري البريطاني الى هيئة الامم المتحدة .

٢٩ – صرح نائب وزير الحربية ان بريطانية عازمة على سحب جيوشها من النمسا فور توقيع المعاهدة .

٣٠ – اطلق الكولونيل شانسيز الفاريز النار على الجنرال فرانكو في احدى الحفلات فاصابه بجرح بسيط واعتقل الكولونيل واعتقل معه بعض الشركاء في الموءامرة .